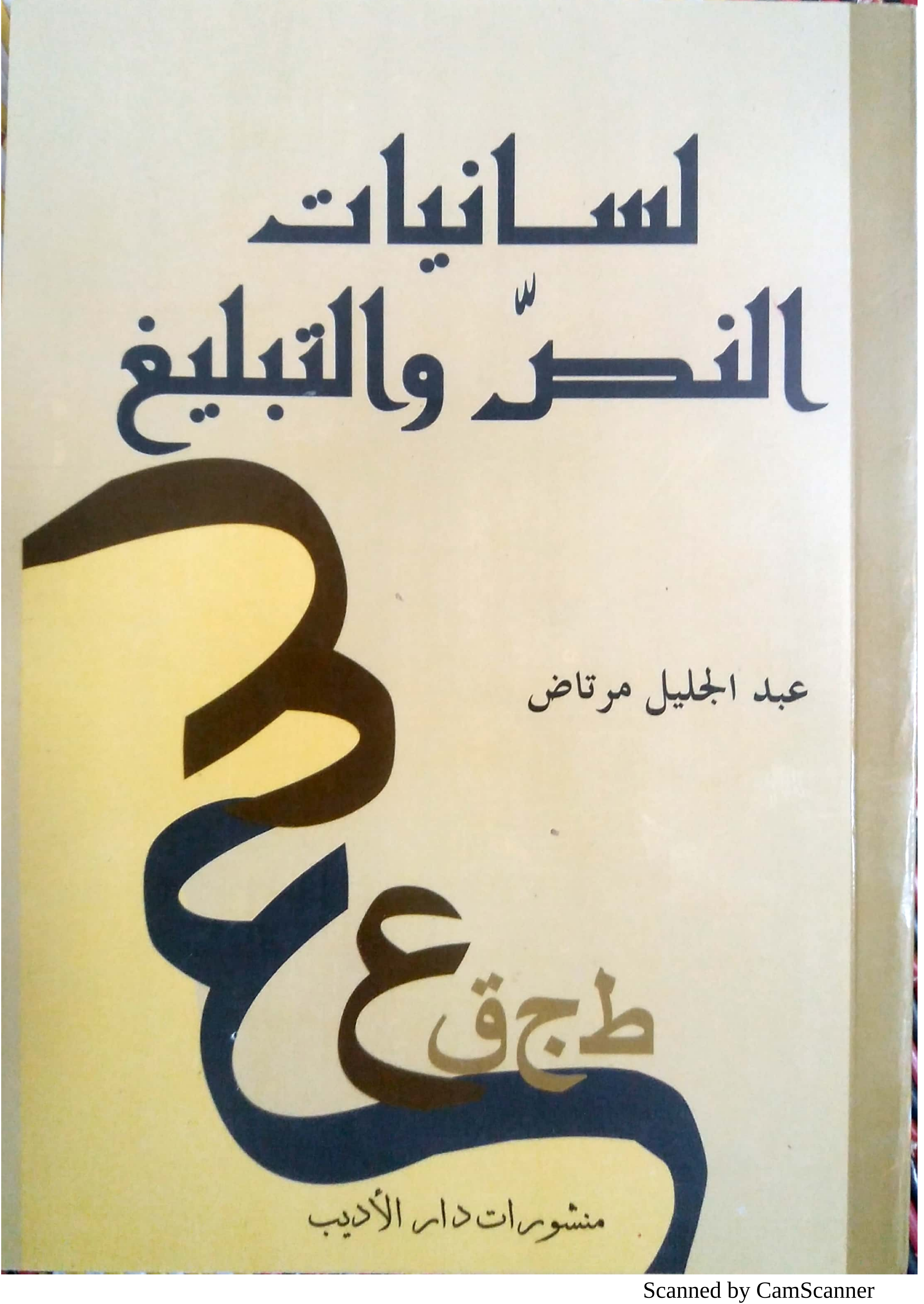


Scanned by CamScanner

عبد الجليل مرتاض

لسانيات النصّ والتبليغ

منشورات دار الأديب

الباب الأول:

التحليل اللّساني للنص والخطاب

الفصـــل الأول : بين المدونة والنص

الفصـــل الثـــاني : مدونة شعرية جاهلية

الفصـــل الثالث : التحليل الخطابي وأضربه في النص

الفصل الأول: بين المدونة والنص

غالبا ما تطلق المدونة "Le corpus"، ويراد بها "عيّنة" من عينات البحث اللّغوي[1]، أو متْن أو مادة (لغوية)[2]...الخ، وهذه التعاريف وما سار في موكبها، لا تفرّق بين مدونة متصلة بما هو خطي أو منطوق أو مرئي غير لساني أو تصوري خارج لساني، وبين مدونات عامة وخاصة، مادية وجوهرية، لا صلة لها بعالم الإنتاج والأفكار في فضاء لا يتجاوز كونه إنتاجا لسانيًا، وإبداعا فنيا لا يتحقق خارج كونه تعبيرا مفصحًا عن خلجات الإنسان ومكنونه.

ما من شيء يُرى أو يلمس أو يُحسّ أو يُتخيّل، ...إلا ويمكن صياغته أو تصوّر عيّنة من عيناته، غير أنه من اللامعقول أن نعتبر جملا أو فقرة أو صفحة من عمل فنّيّ أو إبداعي لا يعدو أن يكون نموذجا أو نمطًا Echantillon مثله مثل عينة تؤخذ من كوكب أو معدن أو جسم ما، فهذه كلها عينات مادية وثابتة إلى حدّ ما، ولا تُفسّر إلا تفسيرا مشتركًا

---

1)- انظر: المعجم الموحد للمصطلحات اللّسانيات، ص: 33، وقارن بمعجم مصطلحات علم اللغة الحديث، ص: 14.

2)- انظر: مثلا معجم اللّسانية، ص: 49.

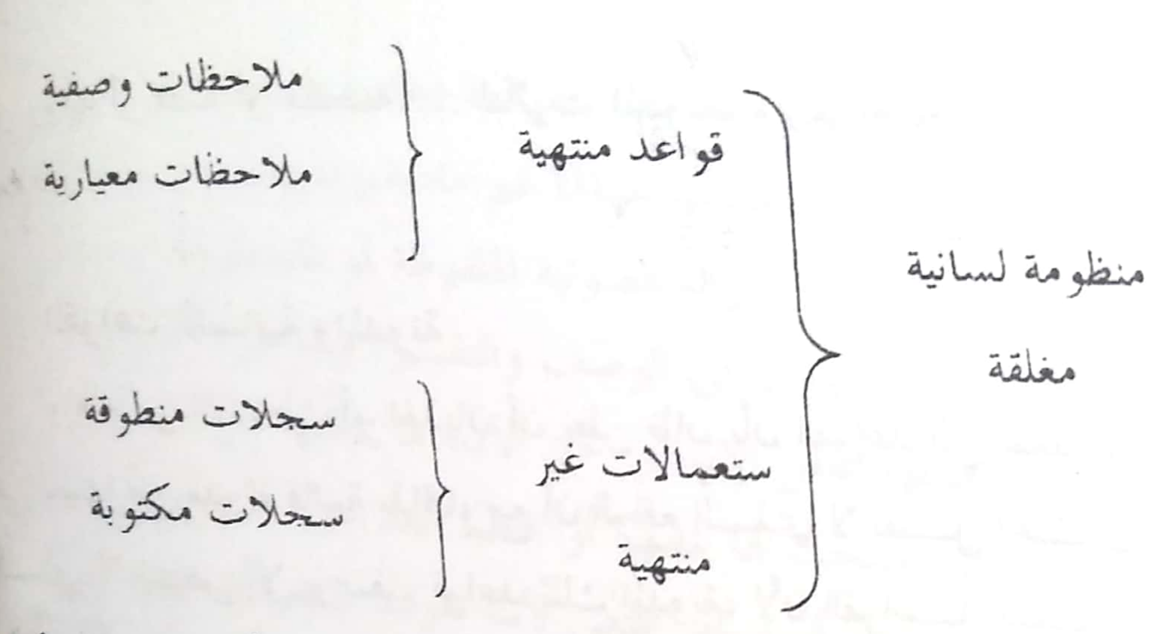
في نهاية كشفها واتضاحها وإخضاعها للدراسة العلمية والمخبرية والتجربة العملية، في حين أن المدونة اللّسانية عيناتها غير مادية،وما يفصح عنها متحرك في مداليله وثابت في دواله الصوتية الملفوظة أو المخطوطة، وعادة ما تخضع قراءتها إلى التأويل لا إلى الوصف والتفسير، ولها من المميّزات الذاتية، والتي لم يحملها العقل الإنساني حتى الآن، ما يمكّنها من الحران، باعتبار الأدوات التي نسجت بها شفهيًا أو خطيًا أبعد غورًا من الإدراك السّطحي لأي دارس هاو أو لساني مختص لأننا تعوّدنا طبيعيا أو اصطناعيا أن نلهج بأشياء ونولع بها لذّةً إلى درجة الغرور أحيانا دون قدرتنا على الوقوف جزءًا من ثانية حتى نصحب لهجنا بمجرد تساؤل فضولي: لماذا نلهج أو نكتب بهذه الكيفية، في الوقت الّذي نؤمن فيه بإمكان وجود كيفيات أخرى لا نهائية؟ أما المتلقي، فلن يكون إلا أقلّ ما يسمع أو ما نُسج له، لأنه من الهذر والخبل أن نميل إلى تصوّر يجعل هذا المتلقي المزيّف أو الانتهازيّ يحلّ محلّ ما سمع أو نسج، في الوقت الّذي استحال فيه على مبدع المدونة أو منشئها أن يكون كذلك.

ولتقريب الأشياء بعضها من بعض، فإن العينة جزء ناقص من شيء مكتمل، في حين أن المدونة في تصورها، لا تمثّل إلا الشيء كله إذا سحبت غرامات من معدن، أو لترات من بئر، فإنهما لا يتأثران آيما تأثّر، وهما في الوقت نفسه يؤولان إن عاجلا أم آجلا إلى النفاد، على حين أنك لو حذفت قاعدة نحوية أو صرفية أو صوتية،... أو اقتطعت فقرة أو صفحة

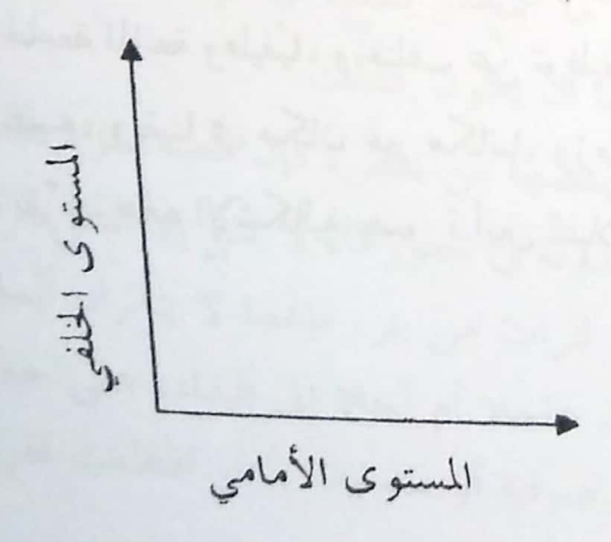
من رواية أو قصة أو ملحمة،... لتأثرت المدونة، ولربما أضحت شيئا آخر أجوف.

القواعد اللسانية والمدونة

ولعله من المضحك أو الهذيان أن يظن ظانّ بأن القواعد التي تُقعّد تؤخذ هي بعينها من مدونة قائمة بذاتها، مع أن الواقع الّذي لا يقبل الجدل أن اللّساني لا ينهض إلا بوصف قواعد تلك المدونة، لأن القواعد تنتمي إلى منظومة لسانية مغلقة ذات أنظمة لسانية مفتوحة لاستعمالات متمايزة، فالمدونة التي اعتمد عليها سيبويه في كتابه المسمّى "قرآن النحو" منظومة لسانية مغلقة من حيث التحرّي والاستقصاء الكلي للمادة اللغوية في اللّسان العربي، ولكنها لم تكن أكثر من وصف وتنظيم لتلك القواعد التي كانت تضمنها لغة طبيعية شفهية، وهي في الوقت نفسه لا تمثل إلا نماذج وقوالب لاستعمالات أرشدت المستعملين اللاحقين إلى نسج ما يخطُر لهم من بناءات تماثل تلك القواعد الجامعة المانعة وظيفيًا، وتختلف عن توظيفها أغراضًا، وإلا ظللنا نلهج بالشيء نفسه، وبقينا في مكان غير مكاننا، وزمان غير زماننا، ولعل المخطط التالي يقرّب هذه الإشكالية بصورة أبين تمثيلاً:

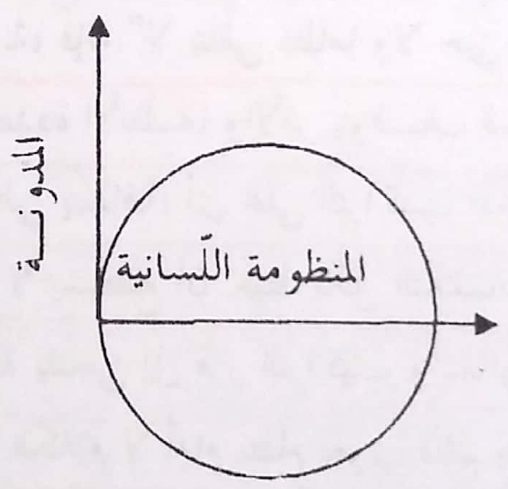


لو لم تكن منظومتنا اللّسانية مغلقة لما انتهت القواعد، ولكان عدد هــذه الأخيرة بعدد الناطقين بلغة معينة، ولكن هذه المنظومة نفســها تنقســم إلى مستويين: خلفي، وأماميّ، فالخلفي تمثله القواعد وكل المواضعات التي يتعذر على المستوى الأمامي أن يغيرها فضلاً عن أن يتبادر إلى صاحبه أن يلغيها، وأما المستوى الأمامي، فتمثّله شتى الاستعمالات الآنية والمتعاقبة باعتبار كل آنيــة مسبوقة بزمنية وغير مهم لهذين المستويين الممثّلين بالمحورين:



أن تكون هذه القواعد وصفية أو معيارية بالنّسبة للمستوى الخلفي، أو أن تكون هذه الاستعمالات اللامنتهية سجلات (خطابات، تواصلات) منطوقة أو مخطوطة، هذا لا يعني إلا المتكلمين والدارسين الغربيين كل الغرابة على الرغم من مواضعاتهم على الأغلب الأعم، عن المنظومة اللّسانية المتّخذة وسيلة بينهم لعادة عرفية يتواصلون ويتفاهمون بها، ليس حبا فيها، ولكن كما أشار ابن جني للتعبير عن أغراضهم وقضاء مآربهم النفعية.

وهذا يعني أن كل مدونة متماسة مع المنظومة اللسانية، ولكنها لا تنوب عنها:



وأما الانطباعات الضيقة أو الواسعة، فإننا لا ننكر أنها قد تنبئ عنها، ولكنها لا تمثلها، لأنه لا يخطر بخطر عاقل أن استعمالا لمتكلم يمثل الاستعمال ذاته لمتكلم آخر حتى لو انتمى طبيعيا إلى جنس المنظومة نفسها، حتى إنه ليمكن القول بأن القواعد الّتي نوظفها لا علاقة لها باستعمالاتنا،

بل كل ما في الأمر أن القواعد في مستواها الخلفي منطقيـــة أو صـــارت برسوخها المغلق الثابت على مرّ الأجيال والعصور كأنها منطقية، مع أنهـــا أوهى من عش عنكبوت، الأمر الّذي أضفى عليها عمرًا أطول، وخلـــودًا أكثر، خلافًا للاستعمالات التي تتعرض باستمرار إلى التصادم والاحتكاك وحتى الضغوطات، وهي تتحرّك في مسارها الأمامي الّذي لا يغطّيه، ولا يؤمّنه استعمال مضى، واستعمال آخر أتى.

الـــمدونـــة والملتـــقي

أما متلقي المدونة، فإنه "لا يتلقّى نظاما ولا حتى جزءًا من هذا النظـــام، لأن اللّغة في ذاتها متعددة الأنظمة، والأمر يتوقـــف قبـــل أي شـــيء علـــى المستويات الخطابية التي يتلقاها، أي على التراكيب المختلفة، لأنها مهما سمـــع السامع ما سمع فإنه لا يستطيع أن يحيط بكل التكلمات الفردية التي يسمعها، ...لأنه في هذه الحالة يلتجئ إلى فرز التراكيب وانتقائها، ويجد المتلقي نفســـه أمام فردية علنية من الكلام لا أمام نظام لغوي قائم بذاته، ولا يمكنه أن يقف على كل التراكمات الخطابية أو الصور الشفوية الموزعة بين الأفراد"(1)، وفي كل مرة نتحدث عن المدونة يستوقفنا أحد أقوال ملارمي: "إننـــا لا نصنـــع الأبيات الشعرية بالأفكار، بل نصنعها بالكلمات"(2)، بـــل ألم يُـــؤثر عـــن

1)- الموازنة بين اللهجات العربية الفصيحة (دراسة لسانية في المدونة والتركيب)، ص: 41.
2)- بنية اللغة الشعرية، ص: 41 جان كوهين.

الجاحظ أنه قال: "المعاني مطروحة في الطريق"؟ ولعل جان كوهين كان أوضح ناقد لساني أشار إلى ما قد يتناسب مع ما نحن بصدده بقوله: "وعندما يخلق الشاعر إذًا استعارة أصيلة، فإنما يخلق الكلمات، وليس العلاقة، إنه يجسد شكلاً قديما في مادة جديدة، وهنا يكمن إبداعه الشعري، فقد أعطيت الطريقة، وبقي أن تستعمل،... إن الصور الإبداعية ليست جديدة في شكلها، بل في الكلمات الجديدة التي جسّدها فيها عبقريّة الشاعر لا غير، قد يحدث أن يعاد استعمال بعض هذه الانجازات، فتسقط لذلك إلى مستوى الاستعمال، نحصل حينئذ على هذه الصور الاستعمالية حيث الشكل والمادة، العلاقة والكلمات متوفرة سلفاً"[1].

لعل من يقف على نص جان كوهين السابق يتعذر عليه أن يستمرئ كل ما جاء في فحواه، ومن أغرب ما جاء فيه أن المبدع يخلق الكلمات لا العلاقة، إذا كان الأمر يتعلق بعناصر نحوية غير جاهزة، فإن كل دارس من الدارسين قد يخطر بباله أن يبدّل أشكالاً قديمة غير منتظمة أو شاذة بأخرى أكثر اطرادًا وانتظامًا تماشيًا مع قول دي سوسور: "ليس للغة ما منظومة ثابتة من الوحدات، وفي أي وقت من الأوقات"[2]، وهذا الحكم من الهفوات التي وقع فيها دي سوسور، لأنه حكم ينطبق على مراحل تطور

1)- نفسه، ص: 27.
2)- محاضرات في اللسانيات العامة، ص: 208.

وحدات نحوية تنبثق من لغة واحدة إلى لغة أو لغات، لا على الشكل النهائي الّذي اتخذته وحدات نحوية في لغة ما، إذ لا يمكن أن يسمح الناطق بالعربية اليوم أو غدًا أن ينصب برافع أو يجزم بناصب، والّذي نراه هو العكس تمامًا، أي المبدع يخلق العلاقة، وليس الكلمات، وأنه يجسّد شكلا جديدًا بمادة قديمة تكاد تهيمن كليا على أيّ مادة جديدة عادة ما تكون ضئيلة أو محتشمة، والإشكال لا يكمن في الاستعمال الّذي استصغر شأنه جان كوهين، بل في طرائق استعماله أي نظمه، وما في لغاتها من استعمالات مختلفة نمطان توأمان متعاقبان: نمط مرتبط ارتباطًا باستعمال على غير مثال سابق إلا بما يسمح بها الاقتباس العفوي، والتناص الآليّ؛ ونمط مقيد تقييدا باستعمال لا يعني إلا الوحدات اللغوية خارج مجازاتها، فالمبدع داخل لغة كالعربية إذا قدّر له أن يستعمل فعل "حَشِمَ" فأمامه اختيارات:

1- أن يوظّفه بمعنى الغضب لشخص أصابه أمر.

2- أن يوظّفه بمعنى الخجل.

3- إذا أراد أن يعدّيه فله اختياران:

أ - أن يعدّيه بالألف "أحشمته".

ب- أن يعدّيه بالحركة (من باب ضرب)، فيقول: "حَشَمْتُهُ".

ومن ثم، فإن المستعمل حرّ ومقيد في آن، وهذه أدنى درجة من درجات الاستعمال، لأنها درجة يكاد يشترك فيها أرباب لغة يتساوون أو

يتقاربون في إتقانها والإلمام بها، والتفاوت بين مبدع ومبدع لا يكمن في الكلمات التي يستعملها هذا أو ذاك، بل في طريقة نسجها في أحيازها الزمانية والمكانية المناسبة، ومع ذلك، وعلى الرّغم من أن اللغة لا تخلو من جدليات أزلية، فإنها في حد ذاتها بريئة من أي انحراف أو استقامة في استعمالها، فكلماتها وصورها لا تنفد، وهي أوسع فضاء من أناس يلهجون بها صوابًا أو خطأ، لأنه لا توجد لدينا حتى الساعة نظرية لغوية بإمكانها أن توضّح كافة الظواهر اللغوية التي مازلنا نتعامل بها أو معها كالعمي أو أشدّ، أي أن "طبيعة النشاط اللغوي لا تبرح معرفتها مُساءً فَهْمُهَا، أما أصلها فسيبقى سرًا إلى الأبد، ولن يكون سهل المنال إلا عبر الأساطير، وجملة القول أننا لا نعرف منذ متى شرع الناس يتكلمون، ولا كيف، ولن نستطيع أكثر من محاولة وصف وظيفيّة لغات طبيعية، والإحاطة من هناك بالخصوصيات الشمولية للغة وصياغة فرضيات حول عملياتها المكتنفة بالأسرار، والتي تستخدم الدماغ الإنساني لتمكّننا من الكلام"[1].

أيا كان الأمر، فإننا كلما رُمنا الحديث عن مصطلح المدونة بوصفها نظاما لسانيا متسقا منتهيا، فإننا نراعي في حساباتنا أن البنيات التي تعترضنا فيها ينبغي أن نعتبر "البنى التي تدرس كل واحدة منها على حدة ليست إلا عنصرا لا يظفر بوجود أو كيان مستقل إلا من خلال ما يربطه من

---

1)- Pour comprendre la linguistique, P : 15 MARINA YAGUELLO

تداعيات وعلاقات مع سواه من العناصر الأخرى، والطبيعة الداخلية التي تمنح هذه المدونة ميزة خاصّة بها، هذه الميزة المتمثلة فيها كلغة أو كنظام ذي قواعد هي التي تنظم علاقات عناصرها المتعارضة في كل مستوياتها المختلفة، وقراءة مدونة ما لا يعني إلا الوقوف على هذه القواعد التي تتحكمها، وحي يقدّر لنا الوقوف بشكل من الأشكال على هذه القواعد يتاح لنا عندئذ الوقوف على بنياتها التي يتأسس بموجبها نظامها فيها"[1].

---

1)- الموازنة بين اللهجات العربية الفصيحة، ص: 5.

الفصل الثاني: مدونة شعرية جاهلية

وحين نتحدث عن مدونة لسانية، فإنه يجب أن نتصور سلفا أن مدونة (س) تختلف اختلافا جزئيا أو كليا عن مدونة (ص)، حتى ولو كانت (س) و(ص) من جنس كلامي أو إبداعي واحد، إذ من الهذر السطحي أن يفكر امرؤ في وضع مدونة نابغية مؤلفة من خمسين بيتا محل مدونة أخرى أقل من هذا أو أكثر[1]:

أ- يا دار ميَّة بالعلياء فالسَّنَدِ ... أقْوَتْ وطَال عَلَيْهَا سَالِفُ الأَبَدِ

وَقَفْتُ فِيهَا أُصَيْلالاً أُسَائِلُهَا ... عَيَّتْ جوابًا وما بالرَّبْعِ مِنْ أَحَدِ

إلاَّ أَوَارِيَّ لأْيًا مَا أُبَيِّنُهَا ... والنُّؤْيُ كالحَوْضِ بالمَظْلُومَةِ الجَلَدِ

رُدَّتْ عَلَيْهِ أقَاصِيهِ ولَبَّدَه ... ضَرْبُ الوَلِيدَةِ بالمِسْحَاةِ فِي الثَّأَدِ

خلّت سبيل أتِيٍّ كان يَحْبِسُهُ ... وَرَفَّعَتْهُ إِلَى السَّجْفَيْنِ فالنَّضَدِ

أضحتْ قِفَارًا، وأضحى أهلُها احتملُوا ... أَخْنَى عَلَيْهَا الَّذِي أَخْنَى عَلَى لُبَدِ

ب- فعدّ عما ترَى إذْ لا ارْتِجَاع لَهُ ... وَانْمِ القُتُودَ عَلَى عَيْرَانَةٍ أُجُدِ

مقذوفة بدخِيس النَّحض، بازِلُها ... لَهُ صَرِيفٌ صَرِيفَ القَعْوِ بالمَسَدِ

كأن رحلي، وقد زال النهار بنا ... بذِي الجَلِيلِ، عَلَى مُسْتَأْنِسٍ وَحِدِ

من وحش وجرة موشيٍّ أكارِعُهُ ... طَاوِي المَصِيرِ، كَسَيْفِ الصَّيْقَلِ الفَرَدِ

سرَتْ عليه من الجَوْزَاءِ سَارِيَةٌ ... تُزْجِي الشَّمالُ عَلَيْهِ جَامِدَ البَرَدِ

فارْتَاع من صوت كلاَّب فبَاتَ له ... طوعَ الشوامتِ من خوفٍ ومن صَرَدِ

---

1)- ديوان النابغة الذبياني، ص: 2-16.

فبثّهنّ عليه واستمرّ به   صمع الكعوب بريئات من الحرد

ج- فهاب ضمران منه حيث يوزعه   طعن المعارك، عند المحجر، النجد

شكّ الفريصة بالمدرى فأنفذها   شكّ المبيطر إذ يشفي من العضد

كأنّه، خارجًا من جنب صفحته   سفّود شرب نسوه عند مفتأد

وظلّ يعجم أعلى الرّوق منقبضًا   في حالك اللون صدق غير ذي أود

لمّا رأى واشق إقعاص صاحبه   ولا سبيل إلى عقل ولا قود

قالت له النّفس إنّي لا أرى طمعًا   وإنّ مولاك لم يسلم ولم يصد

فتلك تبلغني النعمان إنّ له   فضلًا على النّاس في الأدنى وفي البعد

د- ولا أرى فاعلًا في النّاس يشبهه   وما أحاشي من الأقوام من أحد

إلاّ سليمان إذ قال الإله له   قم في البريّة فاحددها عن الفند

وخيّس الجنّ إنّي قد أذنت لهم   يبنون تدمر بالصّفاح والعمد

فمن أطاع فأعقبه بطاعته   كما أطاعك وادلله على الرّشد

ومن عصاك فعاقبه معاقبة   تنهى الظلوم، ولا تقعد على ضمد

إلا لمثلك أو من أنت سابقه   سبق الجواد إذا استولى على الأمد

هـ- واحكم كحكم فتاة الحيّ إذ نظرت   إلى حمام سراع وارد الثّمد

يحفّه جانبا نيق وتتبعه   مثل الزّجاجة لم تكحل من الرّمد

قالت فيا ليتما هذا الحمام لنا   إلى حمامتنا، ونصفه فقد

فحسّبوه فألفوه كما زعمت   تسعًا وتسعين لم تنقص ولم تزد

فكمّلت مئة فيها حمامتها   وأسرعت حسبة في ذلك العدد

إنّ قصيدة "يا دار ميّة..." التي اجتزأنا بنماذج منها لا تختلف عن مدونة أخرى مكوّنة من أربعة أبيات يعبّر فيها الشاعر بني عبس اعترابهم

في بني عامر[1] أو مدونة منظومة من ثلاثة أبيات يبكي فيها القبيلة ذاتها حين فارقوهم إلى بني عامر[2].

ودون أن ندخل في النحل والانتحال، وفيما وصلنا مما ضاع من تراث شعري للنابغة، فإننا نتعامل مع أية مدونة ينتهي إرسالها ويُقْفَل بانتهاء تبليغ المرسلة أو الغرض بين المرسل والمرسل إليه، ونحن نتعامل مع مثل حال هذه المدونة تعاملاً لا يقبل الجدل من وجهة لسانية، طالما أنه نتاج التزم منتجه بلعبة المواضعة المألوفة. وإذا ما طمعنا بمخيّلتنا لتحليل ما اقتنينا من قصيدة "يا دار مية..." تحليلاً لسانيًا، فلنا أن نحدّد المقاربة اللّسانية التي نُضفيها على هذا التحليل، وأن نفصل فصلاً حاسمًا في بيان طبيعة وجنس ما نحلّل، أي هل نحن مثلاً أمام نص أم بناءات لتصورات أم جمل أم وحدات أو مستويات متراصة لا تسمح لك بعزل مستوى واحد دون المسّ بالآخر؟

وقبل أن نعود إلى البث في مخرج قد يقرّب إلى أذهاننا طريقة مناسبة للتعامل مع ذي الإشكالية، فإننا نرتئي أن نحلل هذه المدونة تحليلاً معياريًا مبسّطًا ما دام الأمر متعلّقا بعامّة العامّة، لا بخاصة الخاصة، وذلك رغبة في توسيع الفائدة، وفي تيسير المدونة قبل الإقدام على تحليلها لسانيًا.

يستهل النابغة قصيدته التي نظمها خصّيصًا للدفاع عن نفسه مما ألحق أو اتّهم به من تهمة خطيرة في حق شرف النعمان، حيث وَشَى به بنو قُرَيْعٍ

---

1)- ينظر: ديوانه، ص214.

2)- ينظر: نفسه، ص215.

في قصة المتجردة زوج النعمان بن المنذر، وهذه القصيدة استوقفت الأدباء والنقدة والنحويين واللّغويين، ولأنك تجد أبيات هذه الدالية مبثوثة بثًا كثيفًا ومتكرراً في المعاجم العربية وكتب اللّغة والآداب والشواهد، ومثل هذه الدالية داليته الأخرى:

أمِنْ آلِ ميَّةَ رائحٌ أوْ مُغْتَدِي ... عَجلانَ ذا زادٍ وغيرَ مُزوَّدِ

زَعم البوارحُ أن رحلتنا غدٌ ... وبذاكَ خبّرَنا تَنْعابُ الغراب الأسود

لا مرحبًا بغدٍ ولا أهلاً بهِ ... إنْ كانَ تَفريقُ الأحبَّةِ في غدِ

أوبائيته في مدح الغساسنة:

كِلِني لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبِ ... وليلٍ أقاسيهِ بَطيءِ الكَواكبِ

وحتى عينيّته التي منها:

كأنّ مجرَّ الرَّامساتِ ذُيُولَها ... عَلَيْهِ قَضِيمٌ نَمَّقَتْهُ الصَّوانِعُ

عَلى حِينَ عَاتَبْتُ المَشِيبَ عَلى الصِّبا ... فقلْتُ: ألَمَّا تَصْحُ والشَّيْبُ وازِعُ

وَعِيدُ أبي قَابُوسَ فِي غيرِ كُنْهِهِ ... أتَانِي ودُونِي رَاكِسٌ فالضَّواجِعُ

فبِتُّ كَأنِّي ساورتني ضَئيلة ... من الرُّقْشِ في أنيابها السُّمُّ نَاقعُ

أَتُوعِدُ عبدًا لَمْ يَخُنك أمَانَةً ... وتَتْرُكُ عبْدًا ظَالِمًا وهْوَ ضالِعُ

حَمَلْتَ عليَّ ذَنْبَهُ وتَرَكْتَهُ ... كَذِي العُرِّ يُكْوَى غَيْرُهُ وهْوَ راتِعُ

أتَاكَ بقوْلٍ لَهْلَهِ النَّسْجِ كاذِبٌ ... ولَمْ يَأْتِكَ الحقَّ الّذِي هو ناصِعُ

فإنّكَ كاللّيْلِ الّذِي هو مُدرِكِي ... وإن خِلْتُ أنَّ المُنْتأى عَنك واسِعُ

أبى اللهُ إلا عدلَهُ ووفاءَهُ ... فلا النُّكْرُ معرُوفٌ ولا العُرْفُ ضائِعُ

ليست بأقلّ أهمية من القصائد المشار إليها.

التحليل التعليمي:

أ- 1-6:

يا أهل دار مية التي كانت زمانًا مقامة في ذلك المكان المرتفع أو في تلك العلياء، مررت كعادة مروري، فلم أر أثراً لها، وأنَّى لي أن أرى ذلك، وقد أقفرت، وصارت أرضها قَواءً بعد طول ما مضى عليها من سالف الدهر، لَم يُجدني وقوفي فيها أصيلاً بعد أصيل، ولا سؤالي الملحاح إياها، يا حسرتاه ! عَيِيَتْ دمنتها جوابًا، ولم يبق في ربعها أحد إلا رسْمًا لِمَحبَسِ الدابة ونُؤْيًا أو حاجزًا دائريًا حول مساحة الخباء لا أستطيع أنْ أُبيِّنَ كل ذلك إلا ببطء شديد من كثرة ما أصابها من غيث لمدة أعوام طويلة، ومما زاد تراب أقاصيه أو أطرافه إلصاقا بعضه ببعض ضَرْبُ تلك الأَمَةِ الشابة بالمِسْحَاة أو المِجرَفة في ذلك المكان النديِّ الَّذي لم تتقنه الوَليدة ضربًا، فَخَلَّتْ المرأة طريق سَيْل كان يَحْبِسُهُ، ورَفَّعَتْهُ حتى السِّتْرين اللّذين كانا في مُقدّم البيت، وأضحت بذلك درامية خلاءً بعد أن رحل أهلها، وأفسد عليها الدهر الّذي أفسد على آخر نسر من نسور لقمان السبعة والمسمّى لُبدًا، فهدَّمها وأفناها.

ب- 7-13

ألا تنصرف بعد كل هذا انصرافًا عما ترى، وأنت تعلم أن كل شيء يسعدك من حبيبتك مية قد انتهى أم تحسبه يرجع على نحو ما كان عليه قديمًا؟ كلاّ، ارْفع عيدان رَحْلك على ناقتك الموثّقة خَلْقًا، المَرْمِيَّة لحمًا، وقد دُخس أو أُدْمج بعضه في بعض من كثرته وصلابته، أما سِنُّهَا الّتي بَزلَتْ بـه في سنتها الثامنة، فصريره كصرير البكرة وقد دار فيها محور خشبيّ بحبل من مسَدٍ.

كأن رَحلي في منتصف نهارنا هذا بذي الجليل، وقد توجَّس خيفةً مما رأى من وحش الفلاة، وهو مَوْشيٌّ في قوائمه بنقطٍ بيضٍ وسودٍ مع ضمور مِعَاهُ لا يشبه إلا سيفًا مصنوعًا من صَيْقَل فَرِدٍ، وما كِدْنَا نسري في ليلنا حتى سُقينا بِنَوْءٍ تَسُوقُ وتَدفعُ الرياح الشمالية الممطرة على ثور الوحش كل ما صلب من التلج والجليد، فارتاع الوحش فزعًا من صاحب كِلاب، الأمر الّذي جعله يأخذ احتياطه ويبيت طوعَ قوائمه دون نوم خوفًا من الكلاب ومعاناة من الصَّرَدِ، وهذا ما فعله الكلاَّبُ حيث بَثَّ عليه كلاَبَهُ تحريشًا، لكن قوائمه الصغيرة الكعوب الخالية من أي عيب استمرّت به إسراعًا لعله ينجو من اصطياد الكلاب التي بدأت تطارده من كل حدب وصوب.

ج- 14-19

غير أن أحد الكلاب (ضُمران) هاب الثور الّذي جعل يطعنه طعْن المُعارِكِ الشجاع، فشكَّ (طعن) مِدرَاهُ (قَرْنه) بين مرجع كَتِفِه وخاصرته، أي أعضادها، حتى كأنّ المِدْرَى، وهو يخرج من جَنْب الكلب، أشبهُ بسفّود فيه

شواء تركه قوم كانوا يشربون لدى مُشْتَوًى، فظل ضُمران يعضّ ما استطاع قرنَ الثور المشكوك فيه مُتَقبِّضًا في ذلك القرن الصلب غير ذي اعوجَاجٍ، والّذي تغير لونه المعتاد إلى حلوكة، الأمر الذي جعل الكلب واشمًا يعتبر مما أصاب صاحبه ضمران من طعنة أقعصته إقعاصًا (قتلته قتلاً)، ولا سبيل إلى قصَاصٍ أو طلب دِيَةٍ (تعويض) فحَدَّثَتْهُ نفسه: "إنِّي لا أرى طمعًا في هذا الثور حتى لا يقع لي ما وقع لصاحبي، وإنّ مولاكَ (سيِّده) قُتلت كلابُه التي بثهُنَّ على هذا الثور القويّ، فلم تَسْلَمْ كلابهُ، ولا غَنِم صَيْده".

د- 21-25

إن هذه الناقة التي أمطوها توصلني النعمان ملك الحيرة الّذي شمل فضله ونعيمه القريب والبعيد، حتى إني لا أرى في الناس كلهم، ودون استثناء، ملكًا كريمًا يشبهه ما عدا النبيّ سليمان الّذي أمره الله بأن ينتشر في البراري ليمنع عنها الأخطاء والاعتداءات، ويُذلِّل الجنّ الّذين أذِن لهم الإله ببناء تدمر مدينة لك في الشام بالحجارة العِراض الرّقاق ودعمها بالعمَدِ، أما من أطاعك فأجزه بطاعته بقدر طاعته إياك واذْلُله على طريقه القويم، وأما من عصاك فعاقبْه حتى لا يستفحل الظلم، ولا تكن غضوبا ولا حقودًا إلا لمن كان فضلك عليه كفضل الفرس السابق على ما دونه من فرس في الحلبة.

هـ- 27-31

أما وقد وهبك الله هذا الملك أيها النعمان، فكن حكيما كبنت الخسّ إذ نظرت، وهي قاعدة مع صواحبها، إلى سرب حمام مسرع صَوْبَ ماءٍ

نَزْرٍ لا هو في أرض رِخوة ولا حَجَرٍ يحفّه ناحيتان من الجبل، وهي تُتْبِعُه بعينين ملساوين صفاء كالزجاجة خاليتين مما قد يعتري عيون غيرها من رَمَد أو وجع، فتمنّت قائلة: "ليت هذا الحمام لنا، حتى إذا ما أضيف إلى حمامتنا تمّ مائة حمامة"، ولما حسَبُوهُ تَحسيبًا وجدوه، مثلما حسبت، تسعًا وتسعين دون زيادة ولا نقصان، فكمّلت مائة بحمامتها، فكانت حسْبَتُها أتقن حسبة وأسرعها في ذلك العدد المزعوم.

التحليل الدلالــي

الألفــاظ المفــردة:

استعمل الشاعر ألفاظًا دالّة كانت تتهيأ له طوعًا، قد يبدو لنا اليوم بعضها أو أكثرها غامضًا، لكنها في حد ذاتها واضحة وضوح البريء، والكلمات التي قد تتراءى لنا غامضة أو صعبة لا يكمن غموضها في ذاتها ولا في نظمها، كل ما في الأمر أننا لم نعد نمارس تلك الثقافة العربية القديمة، فبدت غامضة بزوال تلك الثقافة التي نحسب أن بعضها لا يبرح يمارس في باديتنا، فـ"النُّؤْيُ" عُني به هنا إما حاجزًا من تراب حول الخيمة حتى لا يدخلها السيل أو حفر حولها، ونحن نقول: "لَوْنِي"، وهو حفر حول الشجرة لسقيها، وكلمة "خلّت" (تركت) عندنا معروفة، وحتى الآن لا نتواصل بها في الفصحى إلا نادرًا، و"القفار" معروف، لأننا نقول: "لَخلاَ والقِفَار" أي "الخَلاَء والقِفار"، ولذلك جاء في بعض الروايات "أمْسَتْ خَلاَءً"، ولفظة "الأكارع" التي هي جَمْعُ جَمْعِ

(الأكْرُع) متداول بيننا مفردًا، حتى وإن كنا نقول: "الكَرعين" جمعًا، بينما نقول "لُكْرَاعْ" مفردًا بدل "كُرَاعْ"، وجاء "المصير" (المِعَى)، ونحن لا نعرف في عاميتنا إلا جمعه (المُصْرَان) وننطقه بفتح الميم، وجاء "البَرَد" (بفتح الراء) دلالة على ما صلب من الثلج والجليد، ويُطلق عندنا على "البَرْد" (بتسكين الراء) عامة سواء أشرنا به إلى رياح قوية أو إلى طقس بارد، وانظر إلى كلمة "الصرد" (بفتح الراء) كيف دلّ بها على الرياح الباردة، وهو المدلول عينه عندنا (بتسكين الراء وإشمام الصاد سينًا)، وكلمة "المِدْرى" (قرن الغزال) يكاد يقودنا إلى "المِذرى" الخشبة ذات الأطراف يُذرَّى بها الحبّ المدروس، لولا أن الأولى بإهمال الدال، والثانية بإعجامها، و"البيطار" (طبيب الحيوانات) مألوفة، حتى وإن استعملها الشاعر عل صورة "مُبَيْطر" لأنه قصد بها الفعل والحركة (أي شَكَّ الذي يُبَيْطِر)، ولا يوجد في العربية إلا كلمات أربع على هذا النحو: مبيطر، مسيطر، مهيمن، مُبيقر، وهي أسماء لها أفعال مُتصرفة في أزمنتها الثلاثة، أما "السفود" ... لا يعرفه مدرا ووبرًا؟... وهكذا في سائر ما بقي من كلمات مثل: "الصفاح" حتى وإن كنا نتلفّظها بفتح الصاد جريا على عامّيتنا غالبًا بفتح أول الكلمات.

أسماء الأعلام والمواضع

وأما الأسماء المشيرة إلى مواضع،وأعلام، وحيوانات فلم تخلُ هذه المدونة منها، ومن هذه الأسماء الواردة حبيبته افتراضًا أو حقيقةً ميَّةُ،

ونحسب أنها امرأة حقيقية، وهذا ما يكاد ينسحب على الشعر الجاهلي برمته في المطالع الطللية لقصائده، ولم يكن الشاعر الجاهلي مقلدًا أحدًا، ولم تكن عادة متّبعة، بل كانت مطالعه تدل على خلجات يشعر بها صاحبها شعورًا، ويعيشها عيشًا، فالنابغة لم تتواتر اسم امرأة بعينها مثل "سُعْدَى" عبثًا:

أسائل سُعدَى وقد مرَّ دونها ... على حُجُرات الدار سَبْعٌ كوامِلُ

بانتْ سُعادُ وأمسى حبلها انْجَذَمَا ... واحتَلَّتِ الشَّرْعَ فالحَبَّيْنِ من إضَمَا

لِتَرعَ سعادُ حيثُ حلّت بناتُه ... وأَحْبِبْ بسُعْدَى من خليط مُوادِع

أهاجك من سُعداك مغنَى المعاهِدِ ... بروضة نُعميٍّ فذاتِ الأساوِدِ؟

أرسمًا جديدًا من سعاد تجنَّبُ؟ ... عفتْ روضَةُ الأجدادِ منها فيَثْقَبُ.

ولم تتوارد في شعره مية وأمامة أو أُمَيْمَة من باب الخيال:

أمِنْ آلِ مَيَّةَ رائحٌ أو مُغْتَدِ ... عَجْلانَ ذا زادٍ وغَيْرَ مُزَوَّدِ

كِلِيني لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبِ ... ولَيْلٍ أقَاسِيهِ بَطِيءِ الكَوَاكِبِ

ولربما ورد في شعره أسماء أخرى لنساء أخريات:

أتَارِكَةٌ تَدلّلَها قَطَامِ ... وضِنًّا بالتحية والكلام؟

أهاجك من أسماء رسْمُ المنازِلِ ... بِبُرْقَةِ نُعْمِيٍّ فَرَوْضِ الأَحَاوِلِ؟

وذِكْرُ الشاعر لهذه الأسماء النسوية لم يكن من باب الهذيان أو العجز عن الولوج في موضوعه المباشر، بل كان شعورًا إنسانيًا صادقًا بعيدًا كل البعد عن التزمُّت تارة، والرياء مرة، والاختلاق طورًا، لم يكن أمامه وازع

يَزَعُهُ، ولا رادِعٍ ديني أو اجتماعي يردعه، كان يصدر عن نفس بريئـــه، وتعبير لا ينمّ إلا عما يختلج بين ترائبه، ولذلك خلا شعر وتعبير هذه الفترة من الترميز، والتباين الفاحش بين الدالّ ومدلوله، الأمر الّذي جعل بينهما ألفة دلالية لم يظفر بها الشعر الّذي حلّ محلّ الشعر الجاهلي.

والشاعر الجاهلي الّذي يصدر عن خطاب عفوي، وشعور صـادق بريء فقدناهما أو كدنا في أشعارنا العربية اللاحقة، لا يجتـزئ بخطـاب حبيبته تَصرِيحًا، ولكنه يأبى إلا أن يشخّص مكانها ونسـبها وأهلـها دون ضجر ولا حرج، وحاول شعراء الفترة الإسلامية المبكرة أن يتمسّكوُا هذه القاعدة الأصيلة لولا تصدّي محافظين غُلاة جُدُد، مما ألجـأ الشـعراء إلى ابتكار الترميز، والمغالاة في التلميح القريب تارة والإشارات البعيدة مرة.

ولا يكاد ينتهي من وصف مية حتى ينتقل إلى وصف عراك جرى بين ثور وحشي وكلاب، وهو يمتطي ناقته الموثَّقَة الخلقِ، لأنه لم يعـد لديـه جاذب يجذبه إلى تلك الدارة التي أمست خلاء بعد رحيل أهلها إلى وجهة مجهولة مناديا نفسه في يأس وتحسّر لا مفر من تجرّعهما: "فَعَدِّ عمّا تَرى، إذْ لا ارتجاعَ له"، أي انصرف راضيا أو آسفًا حزينًا، فالأمران سيَّانِ، ولـيس بالإمكان دارية التي تغيرت أن تعود إلى سابق عهدها، ودلّ علـى ذلـك النفي القاطع استعماله لعنصر "إذ" الدالّ على التعليل من جهة، وعلى زمان مضى من جهة أخرى.

بعد وصفه وصفًا مشخّصا لناقته المرميّة باللحم رميًــا (مقذوفــة)، والمدمج بعضه في بعض لكثرته وصلابته، واشتقاق ناها (بازلها) دلالة على عمرها في السنة الثامنة، يلتفت إلى وصف الوحوش معيّنا لها أرضــا مــن أراضي العرب يسمّيها "وجرة"، ذكر الأصمعي أنها بين مكّة والبصــرة، وهي أربعون ميلاً ليس فيها منزل ولا نازل ولا نبات، اتخــذها الــوحش مَرْتَا (مفازة)، وسبق لامرئ القيس أن أشار إليها:

تصُدُّ وتُبْدِي عنْ أسِيــلٍ وتَتّقــي بناظرَةٍ من وحشِ وجْــرَةَ مُطفِــلِ

ولكن وحش وجرة هذا وحش وحشي ضارٍ أكارعه مزركشة سوادًا وبياضًا، وشكله ضامر كأنه سيف صقيل يَلوح لامعًا، على أنه يربط هذا الوحش المستهدف بكلاّب بثّ عليه كلابه الماهرة التي يحمل كل كلــب منها اسمًا بعينه، فهذا ضمران يعبث به الثور بمداره عبثًا ليتحوّل إلى صورة مشوي في سفود شواء نُسِيَ لدى مُشْتوًى، وهذا واشق الّذي قد يُسمَّى به إنسان أيضًا، شعر بالرعب وهو يرى ضمران صاحبه يموت موتًــا وَحِيًّــا (قعْصًا)، وحتى لا يقع له ماوقع للكلب الآخر أقلع عن طمعــه في صــيد الوحش معزّيًا مولاه الكلاب أن لا أمانَ ولا صيدَ اليومَ.

دراسة الأعلام Onomasiologie:

وتستمرّ الأعلام تتوارد تَتْرَى، فهو يشير إلى النعمان الّذي سيبقى معه إلى نهاية القصيدة رابطًا بينه وبين ناقته التي أبلغته بما له من فضل ونعمــة

على الناس قاطبة، لا فرق في ذلك بين دانيهم وقاصيهم، وتبليغ الناقة إياه فضل النعمان ليس من باب النيابة الكلامية المعتادة الرتيبة التي نجدها في قصص الحيوانات، بل من باب أن شمول نعمة النعمان على الناس يشهد به الناطقون وغير الناطقين، مما جعله يجيبها ضمنيًا لاحقًا بأن أحدًا لا يشبهه لولا وجود سليمان الحكيم الّذي آزره الإله بما سخر له من جن يستخدمها فيما يشاء من أفعال وإنجازات تفوق قوة وقدرة البشر،...

ولا يترك الشاعر تَعَاجِيبيَّة وردت إشارات منها في القرآن نفسه، حتى ينتقل إلى عجائبيّة أخرى نسجها العرب عن بنت الخُسّ ذات العينين الصافيتين اللتين كانت ترى بهما الأشياء رؤية عن مسافات بعيدة دون أن تخطئ، كدأبها مع سرب الحمام المحلق فوقها تحليقًا سريعًا، وفي علوّ مرتفع.

وتأتي اللّسانيات الحديثة التي أسس أصولها، وأنهج سبيلها فرديناد دي سوسور، لتقول لنا منذ عهد هذا الأخير بوضوح إن كل علامة كائن ذو وجهين: الوجه الدال، وهو عبارة عن تتابع صوتي يكوّن حقيقته الفيزيائية، والوجه المدلول المتمثّل في الفكرة، أي التصور الّذي يستدعيه الدال، فالدال "أرنب" المكوّن من تتابع صوتي مُقدّم أو متمثّل لنا صوتيا بوساطة [أ/ر/ن/ب]، ولكنه لا يستحضر غرضًا خاصًا بهذه الأرنب مع جميع المميزات المتعلّقة بها، بل كل ما في الأمر أنه (الدال) يقدّم لنا فكرة أرنب عوض أي تتابع صوتي آخر يشير إلى شيء آخر غير الأرنب، وهكذا، إنها

فكرة عامة مجردة قيمتها تكمن في تصنيفها الّذي لا يأخذ بعين الاعتبار لا السلالات المختلفة للأرنب، ولا قدّها أو لونها...

ويجمع اللّسانيون المحدثون على أن الدال والمدلول مكوّنان غير قابلين للفصل بالنسبة للعلامة اللسانية داعين إلى الاحتراس القائم على الاعتقاد بأن الدال يعني الكلمة، وأن المدلول يعني الواقع التي يشير إليه أو يمثّله، إن العلامة بشقيها، وبوصفها عنصرًا من عناصر النّظام مستقلاً عن اللّغة، هي التي تمكّننا، حين نستخدمها في جملة، من إقامة إحالة إلى عالم خارج لساني، عالم حقيقي أو خيالي، تجريدي أو ملموس، قريب أو بعيد معلوم أو مجهول "إن العلامة مستقلة عما تشير إليه اللفظة اللغوية، وَزِدْ على هذا أن العلامة خارج الملفوظ لا مرجع لها، ليس أكثر من معنى أو قيمة تُعيّن بالنظر إلى قيمة علامات أخرى، إذ إن دالاًّ بعينه يمكن أن يقابل عدة مداليل، وتنجم الدلالة عن الترابط علامة/ مرجع في سياق التلفّظ، فالجملة هي في الوقت نفسه معنى ومرجع، ومعيار الحقيقة لا يكون قابلاً للتطبيق إلا بالجمل، لأنه لا توجد كلمات معزولة، وتكون العلامة ذاتية المرجع في كل ملفوظ ما وراء لغويّ، إنها تحيل إلى ذاتها، مثلا كلمة "كلب" لا تنبح، وأمثلات قواعد اللغة تبيّن بجلاء ظاهرة مثيرة للاهتمام بهذا الخصوص، لأن المعنى والإحالة في هذه الحالة يتباعدان، ومثالا على ذلك، فإن الجملة الذائعة الصيت:

.«HORTUS est PETRO»

في النحو اللاتيني "«Pierre a un jardin» - «Le jardin est à pierre»"[1]، لا تحيل لبيير، ولا لحديقته، بل كل ما في الأمر تشير إلى قاعدة الترجمة لفعل التملّك[2]، في اللاتينية في استعمال التلاميذ الفرنسيين"[3].

إن الشائع في النحو التقليدي أن الاسم يدل على كائنات حية وعلى تجميع تحت "أشياء" أي الأدوات، الأحاسيس، الأنواع، الظواهر،... إنها مجموع أسماء وأعراض، والمفهوم الأول هو الأكثر رواجًا بين النحويين، ولهذا السبب، لا فرق في الاسمية بين سمير، ذئب، قلم، ثورة، تخفيض، طمأنينة، خُبث، كأس، منزل، وعارضنا بين الأسماء العامة Les noms communs التي يمكن لها أن تنطبق على عناصر منتمية لمجموعات الكائنات أو الأشياء التي ينطبق على اسمها الحالة نفسها، وبين أسماء الأعلام التي لا يُراد بها إلا كائن واحد أو شيء مأخوذ على حدة كالأسماء الشخصية Les prénoms، وأسماء الأسرة أو الألقاب، وألقاب السلالات المشهورة، وألقاب الشعوب والقبائل وجغرافية البلدان، وألقاب المدن والبُقع والأقطار، والأنهار، والجبال،...

---

1)- أي ("الحديقة لبيير" - "لبيير حديقة").

2)- الفعل Avoir.

3)- Pour Comprendre la linguistique, P : 94 MARINA YAGUELLO.

وأما اللّسانيات التوزيعية فإنها تنظر إلى الاسم على أنه كل مـــورفيم (أصغر وحدة دالة) ينتمي إلى صنف يمكن أن يكون مسبوقا بمورفيم مُنتم إلى صنف من المحدّدات ليكوّن معه تركيبا اسميًّا وصولا إلى تكوين مؤلف مباشر لجملة أساس، خلافا للسانيات التوليدية التي تعرّف اسمًا بأنه كـل مورفيم قابل لأن يكون مُدرجًا في مكان بديل رمزي POSTICHE Δ أو رمز مستعار مُهيمن عليه بوساطة الرمز التصنيفي له ("N" بالفرنسية أو "ا" في العربية)[1].

وترى بعض المصادر اللّسانية الأخرى أن النحويين يقولون اسم علـم ويريدون به الاسم الّذي لا يتناسب أو لا يشير إلا لكائن أو مسمًّى واحد "ميّة"، "النعمان"، وترى أخرى أن اسم علم يراد به كل فئة فرعية Sous-catégorie لمجموعة أسماء مكونة من مفردات اصطلاحية، والـتي تحيـل سيمانطيقيًا إلى غرض أو موضوع خارج لساني نـوعي أو وحيـد مميّـز بوساطة تسميته أو تلقيبه من بين المواضيع أو الأشياء ذات النوع نفســه، اسم علم ليس له مدلول آخر غير لقبه (التسمية أو المنـاداة) نفســه، إذا أخذنا اسم علم، وليكن النعمان، فإنّ هذا الاسم يحيل إلى أسماء أخـرى كذلك تسمى النعمان فالمرجع الوحيد للنعمان أن ينادى النعمان، وأسمـاء الأعلام تمثل من الناحية السانتكسية أولويات خاصة، إنها مستقلة ذاتيا، ولا

---

1)- يراجع: JEAN DUBOIS Dictionnaire de linguistique, P : 338

تحتاج في لغة كالعربية إلى أدوات تعريف، وهي عادة الضمير المنفصل، والعلَم، واسم الإشارة،والاسم الموصول، وسواها يحتاج إلى أن يُحلّى بألْ، أو يضاف إلى معرفة، أو يُعرّف بالنداء، وإذا ما صُودف أن زيدَت ألْ في اسم من أسماء المعرفة (كالأسماء الموصولة والأعلام)، فإن ألْ هذه لا تعني تعريفاً، ولكنها لازمة كالداخلة على الأسماء الموصولة والأعلام الموضوعة من أول أمرها مقترنة بالألف والألف منذ مناداة أو تسمية اسم مقرونا بالألف واللام (الأمين، المأمون، الرشيد، السموأل، النعمان)، أو غير لازمة (ألْ) كالأسماء المسموعة في الأعلام المنقولة للدلالة على معناها الأصلي يُلاحظ لدى المتكلم خلال عملية التلفظ بها (الحسن والحسين حفيدا سيّدنا محمّد عليه أفضل الصلوات والسلام).

وبسبب ما تشير إليه اللفظة اللغوية (المرجع المحال إليه) لاسم علم إشارة معينة أو تعيينية وحيدة، فإننا نستخلص أحيانًا "أنّ اسم العلم بطاقة عنوان مُلصقة على شيء ذي مرجع محال إليه، لكنه بدون معنى، أو كما [illegible] أحدهما: إنه دلالة ذاتية تعيينية، وليس له معنى في مقابل المعنى الأصلي (أو الوضعي)، غير أن فريج FREGE يرى عكس هذا ذاهبًا إلى أنه لا توجد أية إحالة ممكنة بدون معنى، ولهذا السبب لم يَعْرف (فريج) أي فرق منطقي بين أسماء الأعلام النحوية والأوصاف المعرّفة، وكان يعتبر النوعين

معًا كأسماء أعلام منطقية"[1]، ويلاحظ أيضا أنه أُضفِيَ بعض الأسماء ذات السمات العَلَميّة على كائنات غير إنسانية، كما نجد في مدونتنا بعضا منها (واشق، ضمران)، وفي بعض اللغات يطلق "Médor" على الكلب، و"CADICHON" على اسم حمار، وللعرب باع وفير في هذا المجال، ولربما حدث العكس وسمى العرب أبناءهم بأسماء حيوانات ونباتات وأحجار ومعادن،... بل حتى من ثقافتنا الشعبية المعيشة تطلق أسماء وألقاب بشرية بعينها على حيوانات، أو على أسماء وألقاب حيوانية أو نباتية أو... على ناس من البشر. ويبدو لنا لأول وهلة أن اسم العلم يقيم علاقة مباشرة بين دالّ ومَرجعه الدلالي أو ما تشير إليه اللفظة اللّغوية (سلسلة صوتية والشخص الّذي تحيل إليه) دون المرور عبر مدلول، والواقع أنه لا يوجد أي تصور لـ"شريك"[2]، يقابل دالّ "شَرِكَ"، بل لا يوجد تصوّر بين هذا الفعل العربي والسيد "شسراك"، ومن ثَمّ، فإن اسم العلم لن يكون له علاقة، لأنه ليس له علامة خارج العلاقة دال/مدلول[3].

ويشير أحد اللّسانيين المحدثين (W.GODZICH)، إلى أن أسماء الأعلام تتضمّن معانم Des sèmes الجنس (Genre) والإغرابية Exotisme، والأصل الجهويّ، والانتماء إلى طبقة اجتماعية معلومة أو مسلّم بها كتسمية

---

1)- Dictionnaire Encyclopédique des sciences de langage, P : 321.

2)- اسم علم،وهو شريك بنْ سحْماء الّذي قذف به هلالُ بن أمية امرأته.

3)- يراجع: Pour comprendre la linguistique, P : 95.

المسلمين أبناءهم بأسماء الأنبياء، أو رغبة العائلات المثقفة في تسمية أبنائهم تسميات نادرة أو منعدمة الوجود فيما هو شائع من الأسماء، غير أنه لا يكون هذا حصريا إلا في ميدان دلالة معنى في مقابل معنى أصلي، والّذي بلغت الأنظار إلى تفاخر أو تعاظم بما لا يملك المرء مع الإعجاب بكل وَسْم شائع مقابل أسماء عادية لا تلفت أي نظر، بمعنى ان المفاهيم التي ترافق المعنى الأصلي للأسماء هي التّي تتحكّم في اختيار الأسماء التي يُسمَّى بها أبناؤنا "حتى في حالة كون اسم علم من الناحية الاشتقاقية ذا دلالة دقيقة (وهذا هو الحال تقريبا، لأن اسم العلم في الأصل كُنْية)، فإنه ومن خلال وظيفته نفسها، يُعَدُّ تقريبًا غير ذي دلالة Désémantisé بشكل تام، لأنه وبالضبط لا يكون مفهومًا (تصورًا) انطلاقًا من شيء، وعليه فإن اسم علم لا يصير فعلاً علامة إلا عندما يصير اسمًا عامًا Nom Commun"[1].

إن الأسماء المباشرة التي يمكن اعتبارها أسماء أعلام في قصيدة النابغة قليلة، ولكنها لا تحمل دلالات خارج اسميتها، وعلاقتها تبقى محصورة وداخلية لا تتجاوز علاقتها: دال/مدلول، لأن اسم العلم لا يتغير ولا يتطور، فإن لَم يكن جامدًا فهو ثابت، لكن هذا الثبوت في نفسه، فحين تُسمّي ابنك باسم جدك أو شخصية تُعْجَبُ بها أو استقاق يَستولي عليك، فهل لكَ قَصْدٌ بأن يكون ابنك صورة طبق الأصل لتلك الشّخصية أو ذلك الاشتقاق؟ كل ما نتمسك به عُرفيًا أن الاسم ما نُودِيَ به صاحبُه، فاسم

1)- المرجع السابق، ص: 95.

مَيَّة أوْ مَيّ" في الثقافة العربية لا يشيران إلى دلالة أكثـــر أو أقـــلّ منـــهما، ومثلهما النعمان وسليمان فكل سمة تظل عنوانًا ملصقا بصـــاحبها ملكـــا ونبوّة، ولم يكن صاحب المدونة ملزمًا بذكر كل اسم علم بعينه وأصواته المعيَّن أو المنادى بها، كما ذكر "الإله"، "مية"، "النعمـــان"، "سـليمان"، "ضمران"،... بل اجتزأ بالإيحاء إليها نيّةً أو عادةً أو صـــفةً،... يرْكنـــه (يفهمه) المُرسل إليه المعتاد محيطًا وثقافة وتقليدًا وفراسةً عليه دونما حاجة إلى ذكره بعينه، فالمتكلم عبّر عن الأمَة الشابّة التي تُتّخذ خادمـــة بلفـــظ "الوليدة"، لأن الوليد مثلما يطلق على الصبي كان يُطلق عندهم أيضا على العبد، ومثله الوليدة تطلق على الصبيَّة والأمَة، وجمعها ولائِدُ، ولذلك روى الأصمعي "ردَّتْ عليْه" بالبناء للمعلوم، وإن كان هذا البناء لا ينسجم مع ما تقدم، ولا مع ما تأخر، لأن المضمر لا يُكرَّر مباشرة، ولا أدلّ على هذا قولاه اللاحقان: "خَلَّتْ سَبِيلَ أتِيٌّ" و"رَفَّعَتْه".

وعبّر المتكلم عن أسماء وألقاب عائلة "مية" بـــ "أهلها"، وعن ناقتـــه الضخمة بالـــ"عَيْرَانَة"، وعن وصف "وحش وَجْرَة" بصفات مميّـــزة مـــن خلال الإشارة إلى وشي قوائمه وضُموره ومصارينه، ونعت مربّي الكلاب باسم "الكلاّب" لغلبة هذه الصفة عليه، وهي أولى من ذكر اسم علمه حتى لو كان يعرفه، وكنّى عن الثور المستهدف بقوله "واســـتمر بـــه ضُـــمْعُ الكعوب"، وعن طبيب الحيوانات بـــ"المُبَيْطر" وهي بنية لغوية عزيزة لم يردْ -كما أشرنا- على صيغتها إلاّ ثلاثة أحرفٍ يمكن قياسُ كلمات نحوها في عصرنا اللّغوي الشحيح، في حين أنه أشـــار إلى قـــوم كـــانوا يشـــربون

بـ"شَرْبْ" لا يدخلون مباشرة في حديثه،وما كان يعنيه منهم آثارُ مُشتواهم ومطبخهم التي التقطها لبناء صورة تشبيه توضح عبث مِدْرَى الثور بضمران ليتحول قرنه سفودًا أسود كان يُشتوى به على فحم...

ويستمر المتكلم اللعب بأسماء أعلام وألقاب، تارة يفصح عنها، وقد يكررها، ومرة يكتفي بالإيماء إليها عن قرب أو بعد مستعينًا بلغته الطبيعية وخطابه التلقائي المستمد من معطياته الثقافية العامة والخاصة، ومن خياله الدافق، فتراه يغوصُ ويستطرد حتى كأنه لا يبالي بأشياء أخرى ستأتي، وإذا به يعود فجأة إلى ذكر أسماء أعلام جديدة أو تكرارها بعناصر لسانية أبلغ مما لو ذكرها بذاتها.يعود لذكر ناقته (فتلك تبلغني)،...وأما اسم النعمان، فهو المحور الرئيس، وما عداه أسماء وألقاب ثانوية في هذه المدونة، و لم يوظفها كلها إلا من أجل تبليغ مرامه إلى هذا العلم، ولذلك أعرض عن ذكر أسماء بعينها إزاءه تعظيمًا له، بل إنصافا حتى إنه لم يُحاش أحدًا منها عدا سليمان الحكيم الّذي سخّر الإله له الجن ليُذَلّلها فيما يشاء من أعمال تفوق خيال الإنس، ومن ثمّ نجده يكتفي بذكر "الناس" "فاعلاً"، "الأقوام"، لمثلك، فتاة الحي"، "فحسّبوه"، "مولاك"،...

وما نراه أنّ ذكر اسمٍ يَتلوَ اسم آخر تصريحًا أو تكريرًا أو تلميحًا،... لا يُعدُّ في مسار مدونة حشوًا ولا ملأً، ودون أن ندخل في المزايا البلاغية التي هي شيء آخر لا يتصل بعملنا هذا، فإن وجود أسماء الأعلام في جنس من أجناس التبليغات الفنية والإبداعية ليس له ما يبرّره وحسب، بل يدخل في صلب المدونة التي لا يُتصوّر إنجاز من إنجازاها بدونه.

دراسة فنية للأعلام:

ومما يُؤسف له أننا غالبًا ما ننصهر في مستويات داخلية أو خارجية، أو ندوب في ظواهر تأسرنا فيما نتلقّى من مدونة، أيًا كان جنسها، دون أن نلتفت إلى الوظائف الثقيلة التي تضطلع بها أسماء الشخصيات والكنى والألقاب وما قد ينوب عن كل هذا أو بعضه من عناصر ظاهرة أو خفية.

وإذا، فعلاوة على الأحكام النحوية التي يتصف بها العلم عمومًا في خمس حالات[1]، فإنه لا يفقد صفة العلامة الشعرية على الرغم من كونه، كما ألمحنا، لا يتجاوز كونه دالا ومدلولاً قائمين بذاقما مشيرين إلى شيء بعينه لا بغيره، وتكمن العلامة الشعرية خارج الاسمية المنادى بها شخص، أي اسم العلم ليس مجرد أصوات صماء في المجال الإبداعي.

تقوم الأسماء بتنمية سردية قد تكون داخلية، وقد تكون خارجية، لا يستهان بها، فاسم العلم في أي عمل إبداعي يحدد مستويات الخطاب ودرجاتها العليا والدنيا والأساسية والقانونية، والثابتة والمتغيرة،... فذكر المتكلم لميَّة دفعه إلى استعمال النداء، ولكننا لا نعرف كيف نطق التركيب:

- يا دارَ ميَّةَ (مثلما ضبط هنا) أم
- يا دارُ ميَّةُ (برفع المنادى (الدار) ورفع مية إخبارا عنها) أم

---

1)- أي يكون العلم مفردًا (أحمد، تبسة)، ومركبا تركيبا إضافيا (عبد الملك)، ومركبا تركيبا مزجيًا (نيويورك)، ومركبا مختومًا بكلمة "ويه" مثل سيبويه، ومركبا من جملة مكوّنة من مسند ومسند إليه: سُرَّ من رأى.

- يا دارَ ميَّةَ (وهذا الأخير أكثر ورودًا في القرآن وفي أشعار العرب)؟

لأن الدار قبل ندائها لم تكن دالة على دار معينة.

غير أن ما ذكر أعلاه من تساؤلات لغوية غير مهم، لأن الأكثر أهمية ما كسبته دار مية من التفات المتكلم نحوها ومخاطبته إياها، فانتقلت من مجرد دار في أرض عالية إلى رمز لفتاة قادت المغرم بها إلى أن ينفجر بهذه الأبيات الشعرية التي دارت معانيها في أبيات ستة، ولكنه ما كان ليفغر فاه متغنيًا بهذه الأبيات لوْلامية، ومن هنا، فلا يمكن وضع الوليدة (الأمة الشابة) في درجة واحدة معها، وذِكرُه لآخر نسر من نسور لقمان المسنّى لُبدًا، كما تزعم العرب، يشير به إلى مأساة لنهاية واحدة، وهنا تكمن العلامة الشعرية للنسر من جهة، وأهل مية من جهة أخرى، وهي علامة مشتركة، وضمران ليس كلبًا عاديًا، وإلا فلم ذكر هذا الكلب بعينه؟ لاشكّ في أنه أقوى الكلاب وأجرؤها في الطراد والقنص، وسائر الكلاب، ما بينها واشق، تستمد من مبادرته مصدر القوة والشجاعة، ولذا فالعلامة [illegible] بين هذه الكلاب غيرُ متوازنة وذاتُ درجات متباينة، وتبقى درجة ضمران مع هزيمته وتمثيل الثور بجثته أسمى من درجات أصحابه.

ومن الظواهر واللمحات الثقيلة التي تزخر بها مدونتها احتواؤها على مدد خارجيّ مقتبس من بعض الكتب السماوية، لأن ذكره الإله وسليمان والجن ليس من باب اللغو والخيال، الأمر الّذي أضفى على المدونة بناء سرديًا قويًا، ومكّن صاحبها من زاد دلالي ثريّ استثمره في تطوير الحدث،

وكلما ألفينا أنفسنا أمام تلقٍّ مثل هذا، فإن الحدث لا يصل سابقا بلاحق، بل بالعكس فإنه يربط لاحقا بسابق، لأن الحكْي لا يسير على وتيرته سيرا متعاقبا قائمًا على التآلف تارة والتعارض مرة، بل سيرًا مرتبطا بقوة وهيمنة وتفوّق ما يلحق على ما يسبق، وكما نرى لا يُحرّر الحكي أو القصّ من هذه الهيمنة الخارجية إلا ابتداء من البيت الرابع والعشرين، حيث يعيد لمدوحه دي الفضل الشامل على الناس دونما استثناء توازنه الطبيعي، ولكنه يعود ليسوّي بينه وبين فتاة الحي (بنت الخس) المشهورة في حكمها بوضع الشيء في موضعه وإصابته في حدسها، ولربما يبعده هنا حتى على المساواة ما دام أنه يُدعى لحذو فعل سابق، أي نجد السرد محشوًا ضمنيًا بهيمنة خارجية.

ومما نَخْلص إليه أنّ اسم العلم ينبغي ألاّ يُعامل معاملة أية علامة لسانية لها وجهان: دالّ ومدلول، لا يتعلقان إلا بما يعيّنان، يصدق هذا على السجلات الإدارية والهويات الشخصية، أما تلك الأسماء التي توظف في أجناس فنية وإبداعية، فإنها يجب أن تُدرس وفق وظائفها، وبعدها السردي، ودرجاتها قوة أو ضعفًا، اقتباسًا أو خلقًا، وحسب كونها تمثل أبعادًا خارجية أو داخلية، على أن نهتم أكثر بهذه الأخيرة لأنها من صنع الإبداع الحقيق المنبثق من الصفر، حتى لا أقول من العدمية.

أسماء المواضع في خضم الخطاب:

قد يَوْهَم واهِمٌ أن الشاعر لا يعبأ، وكأنه خارج وعيه، وهو يـذكر مواضع وأسماء أماكن، وهذه مغالطة ليس بعدها مغالطة، فالمواضع من أحياء، وجبال، وأودية، وشعاب،وحلبات، وروضات، ومروج،... كلها أدوات تحدّد الفضاء المغلق أو المفتوح الّذي يجري فيه الخطاب، وتدور في أثنائه الأحداث المشار إليها في القصيدة، وهذه ميزة أهملتها الإبـداعات العربية اللاحقة إهمالا مسرفا وكأنها مما يُخجل من ذكره، مما جعل هـذه الإبداعات لا ترقى إلى العالمية، وظلت تراوح فضاءات وهمية خوفًا من إثارة عواطف اجتماعية محلية، أو انحناء لثقافة التسلط القوية النابعة من عوامل خارجية.

شاعرنا هنا لم يجد في ثقافة محيطه المتسامحة غضاضة من أن يخبر سواه بأن هذه المرأة العربية الجميلة التي يتشبّب بها مراراً كانت تقيم في مكـان مرتفع مسند إلى جبل، وأنه لم يبق من هذه الدار إلا طلل يدل على المكان الّذي كانت تُحبس فيه الدابّة لا يكاد يُرى إلا ببطءٍ وصعوبة،... وكـان هذا دأب الشاعر مع غوانيه الأخريات، حيث يربط الحدث بالمكان، (يـا دار مية بالعلياء،...)، (ما بالربع مع أحد)، (النؤي كالحوض،...)، (رفّعته إلى السِّجفين فالنّضد)، (بذي الجليل...)، (من وحشٍ وجرة...) ومقابل ذلك تراه يربط القصة ووقوعها بالزمان (طال عليها سالف الأبد)، (وقفت

فيها أصيلالا...)، (خلّت سبيل أتيّ كان يحبسه)، (أضحت قفـــارا...). (أخنى عليها على الّذي أخنى على لبد)، (زال النهار بنا)...

ولا تُعدُّ المواضع التي تتوارد قلة أو كثرة فضلات خطابية أو مجرد عادة متبعة من شعراء هذا العصر الأدبي الزاهي بقدر ما تعدّ تعيينا فضائيا محددا أو معلمًا من الشاعر ليس إغراقا في التجسيد المادي بدعوى أن شعراء هذا العصر كانوا عاجزين عن التعاطي مع التجريد والترميز، ولكن من باب أن هؤلاء ينهلون من ثقافة واقعها الصدق، ونبراسها البراءة، وسبيلها الخلوّ من الوحدات اللغوية الضبابية التي غدا يتميز بها شعرنا العربي الحديث هروبــا من الكشف المباشر عن الأشياء والعالم الحقيقي الّذي يطفح بمعانٍ عُبّر عنها بمعاني أخرى.

ما أروع شاعرا، وهو ينسج معانيه المرسلة إلى سواه مـــن المـــتلقين بوحدات معجمية مستلّة من بيئته، وبصور شاعرية مقتدّة مـــن ثقافتـــه، وبتراكيب لغوية اسمية وفعلية، بسيطة ومركبة تسري ســـريانا معتـــادًا في تواصلات مجتمعه،... أعظم وأكْبِر بشاعر لا يرى شنارًا ولا مهانة، وهو يراسلنا بأبسط أسماء المواضع، وأشهر أسماء الأعلام، وأخشن أو أظرف أو أقبح أو أجمل أسماء الحيوان، فضلا عـــن الـــدور، والمعاهـــد، والمغـــاني، والروضات،... وأسماء أشياء عامة تارة، وخاصة طورا لا حصر لهـــا إلا حدود قصيدته.

سواء شعرنا بذلك أم لم نشعر، فإننا لا نعيش خارج أسماء المواضع، ما من فرد في الكون إلا ونجده مرتبطا روحيا وعاطفيا وتاريخيا وسلاليا،... بمواضع يعيشها وتعيشه، بها يستأنس، ومنها يغدو ذات غدوة، وإليها يعود ذات أمسية، فيها يجوع ويعطش، وفيها يشبع ويثمل، يجود بماله ومهجته دفاعًا عنها كلما دعا داعٍ إلى ذلك، وهو يسلّم كل ما يملك راضيا مرضيا.

إننا نسعى ضربًا في الأرض، ثم لا نلبث أن نتذكر أنفسنا بفضل أسماء مواضع مساقط رؤوسنا التي تذوب أصواتها في نفوسنا، وتنساب انسيابًا في قلوبنا، لا نشعر بثقل ولا تنافر ونحن نخرجها تلفظا بلساننا،...

ليس أسماء المواضع التي تغنّى بها النابغة بدعًا مما ذكرنا، ولربما نجد شعراء يعمّمون كما جاء في هذه المدونة (ما بالربع من أحد) تعميمًا يدل على اليأس والحزن والإعلام التام، أو يخصّصون، وهو الغالب الأعم في خطاب الشعر الجاهلي (بذي الجليل، وحش وجرة) كدلالة على التفصيل والإعلام الجزئي، والتواصل الوجداني الكلي.

ولعلنا كثيرا ما نسهو سهوًا بأننا لم نولد بدون مواضع، ولا ترعرعنا وشبنا إلى كهولتنا وأرذل عمرنا في غياب أسماء الأماكن، ولعلّنا كثيرا ما تصرْفنا الطبيعة كقوة خارجية مهيمنة على نفوسنا وعقولنا، لنلتفت، ولو هنيهة، إلى مداشرنا التي قد تفوق أسماء جبالها ورباها وأوديتها وغاباتها ومعابرها ومسارحها،... ما نُكنّى به من ألقاب، ونُسمّى به من أسماءٍ، لم

تُدرس حتى الآن، في تقديرنا، الدراسة الجديرة بها، وهي خيرُ وأوثق شهادة حية ماثلة على أسلافنا والقوافل والرجال الّذين مرّوا أو أقاموا ذات زمن هنا.

ومن ثمّ، فليس عجبًا أن نجد الإنسان العربي القديم مرتبطًا بالمكان أكثر مما كان متعلقا بالإنسان، ولكن قساوة الطبيعة، وشظف العيش، وتفكك الوحدة الاجتماعية، وغريزته في عشق التحرر، وإيثار العزلة على تلويث الأجواء العائلية،... كل ذلك، ربما كان أحد الدوافع النفسية الّذي جعله يضحّي بالمكان على حساب الاستقرار:

فإني إلى قوم سواكم لأميلُ
وشُدّتْ لطيّاتٍ مطايا وأرْحُلُ
وأرْقطُ زُهلول وعرفاءُ جَيألُ

ومع ذلك، فإن مفارقة ذلك العربي لمكانه على مضض، لم يكن لُينسيه تذَكُّرَهُ الّذي عادة ما كان يتّخذه منْفذًا ينْفذ منه إلى أغراضه:

1) قفا نبك من ذكرى حبيب ومنْزل	بسقط اللّوى بين الدّخول فحوْمل
2) لخولة أطلال ببرقةِ ثَهمدِ	تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليدِ
3) أمن أمّ أوْفى دِمنة لم تكلّمِ	بحومانة الدرّاج فالمُتثلّم
4) عَفتِ الديارُ محلُّها فمقامُها	بمنًى، تأبّد غولُها فرجامُها
5) هل غادر الشعراء من متردّمِ	أم هل عرفتُ الدار بعد توهُّمِ؟
يا دارة عبلةَ بالجواءِ تكلّمي	وعِمي صباحًا دار عبْلة واسْلمي

6) ألا هُبّي بصحنك فاصْبحينا ... ولا تُبقي خمور الأندرينا

7) آذنتنا ببينها أسماءُ ... ربّ ثاوٍ، يُملّ منه الثواءُ

بعد عهدٍ لها ببُرقة شمّا ... فأدنى ديارها الخلصاءُ

فالمحيّاةُ، فالصّفاحُ، فأعلى ... ذي فتاقٍ، فعاذبٌ، فالوفاءُ

فرياضُ القطا، فأودية الشُّر ... بُب، فالشُّعبتان، فالأبلاءُ

8) أقفر من أهله ملحوبُ ... فالقُطَبيّاتُ فالذّنوبُ

فراكسٌ فثُعالباتٌ ... فذاتُ فرقين، فالقليبُ

فعَرْدةٌ، فقفا حِبرٌّ ... ليس بها، منهمُ، عريبُ

ولعل اختلاف نظرتنا للأمكنة وأسماء المواضع عن نظرة العربي القديم، يعود إلى رؤيتنا الثابتة الموثّقة لما يحيط بنا من أسماء مواضع، خلافًا للرؤية العُرفية المتغيرة لها من ذلك العربي الّذي كلما ضاعت منه طوعًا أو كرهًا، تذكّرها مستلذا بها عبر ما جمعه فيها من آهات وذكرياتٍ لا يغرب شعاعها عنه ما حَيِيَ، وما حلّ وارتحل.

الفصل الثالث: التحليل الخطابي وأضربه في النص

ليس من أحد يتجادل مع الآخر، في أن النظم اللغوي شعرا مُختلف عمّا يسمّى نثرا، فالشاعر سجين قواعد عروضية لا يوجد غَيْرُ الشاعر ملزمًا بها، فهو أسير أوزان، وقافية، وموسيقى صوتية متكررة،... ومع هذا الاعتقاد السائد بين الشعر وأجناس أخرى غير شعرية، فإن التفكير لا يذهب بنا إلى الاعتقاد المطلق بأن الشاعر الجاهلي والإسلامي كانا يحسان بما أصبح يحس به شعراء لاحقون، بل ظل الشعراء العرب يتغنّون وينظمون أشعارهم ونظومهم حتى القرن الرابع الهجري على الأقل دون حاجة ماسّة منهم للرجوع إلى الأوزان الخليلية.

وإذا كان النابغة لم يفكر لحظة فيما أصبح غيره يفكر فيه لاحقا بالنسبة لقواعد صناعة الشعر، فإن سليقيته الكلامية التلقائية لم توقفه بالنسبة للقواعد اللغوية، فالشاعر كان يصدر عن لغة ميسّرة، وقواعد طبيعية، وتراكيب أفقية وعمودية تتقاطع تقاطعا متتاليا من بداية المدونة إلى نهايتها، ولسنا نقصد هنا بالجانب العمودي ما هو متعارف عليه دياكرونيا أو تعاقبيا أو إبدالا، بل نقصد به خطابا بخطاب، تارة نجد الأفقية نطفو على الخطاب حتى كأن لا وجود لخطاب عمودي، وتارة أخرى يتداخل

توازن الخطابان، ويرجع مردّ ذلك إلى موقف الشاعر إخبارا أو نفيا أو
ثباتا أو إنكارا أو أمرا أو نهيا،...

إن الشطر الأول كله من البيت الأول يمثل خطابا خطيا أفقيا غرضه
التعيين والإشارة والتحديد والنداء ومَوْضَعَةُ المنادى:

يَا دار مية بالعلياء فالسند

على حين أن الشطر الثاني من البيت نفسه خطاب عمودي فحواه
الإعلام، كأنه لّما تذكّر دار مية أو أهلها الّذين كانوا يقطنون أجابه مجيب:
واحسرتاه! ما تناديه وتتوجع من أجله أقفر إقفارا، وكأن الشاعر لم
يصدق ما رأى نظرا لهول الصدمة وسوء المفاجأة، وأبى إلا أن يعود إلى
خطاب أفقي تسلسلي:

وقفتُ فيها أصيلانًا أسائلها

مستعملا ضمير المتكلم دلالة على الخطاب الحسيّ المباشر، وهذا
الخطاب الأفقي وظيفته الإخبار عن نفسه بنفسه والتساؤل وتعيين الزمن،
لكن الخطاب ما انتهى أفقيا إلا ليبدأ عموديا بالآخر:

عيَّتْ جوابًا

لأن المتكلم لا يسأل عن شيء ليخبر نفسه عن مجهوله أو سرّه أو
مكونته... وإلا تساوى السائل بالمسؤول أي -هنا- الضمير الشخصي
الأول بالضمير الشخصي الثالث، ومن ثمّ، فإنّ التركيب:

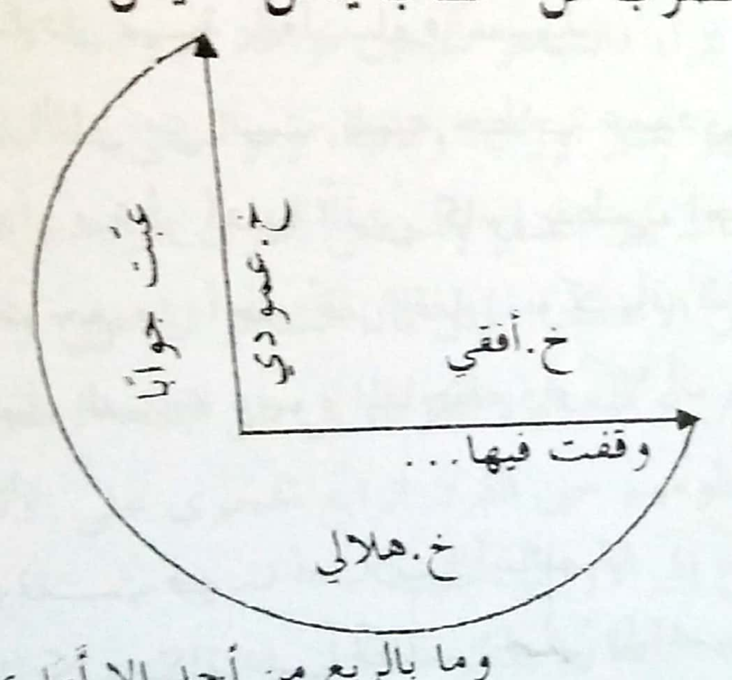
وما بالربع من أحد

هو بداية لخطاب جديد ذي صلة وطيدة بما جـــاء بعـــده ليصـ

الخطاب:

وما بالربع من أحد إلا أواريَّ

وهذا الضرب من الخطاب يمكن أن يمثل خطابًا "هلاليًا":



وما بالربع من أحد إلا أواريَّ

بمعنى أنّ وظيفة الخطاب الهلالي أن يشدّ حلقتين من حلقات الخطابين: الأفقي والعمودي، ولذا يمكن أن يسمّى خطابا رابطا أو واصـــلا، لأنـــه وُصلة بينهما، والخطاب الهلالي مستقل عن أي تدخل خـــارجي، لأنـــه خطاب واصف وموصوف لا يقبل أمرا ولا نهيا...

وأمـــا التـــركيب:

لأيـــا مـــا أبيّـــنهـــا

فمن الواضح أنه يدل دلالة صريحة على خطاب خطي أفقي صادر عن متكلم يُخبِر عن نفسه، ليأتي دور خطاب عمودي:

والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد

وهو خطاب حكائي يسرد آثارا، وأدوات وأشياء تـدخل في طـيّ التاريخ، لأن الشاعر في موقفٍ بسْطٍ شبّه فيه ذلك النؤي (الحاجز) بحوض حُفر لأول مرة في أرض (مظلومة) من شخص أصابه مطر.

ولما كان الخطاب لا يتكرر حتى جزء منه بنفسه فضلا عن أن يتوارد هو بعينه، فإن ما ورد في البيت الرابع على الرغم مـن كونـه عموديًـا ظاهريًا، فإن تركيبا مثل:

رُدّت علـي أقـاصيـه

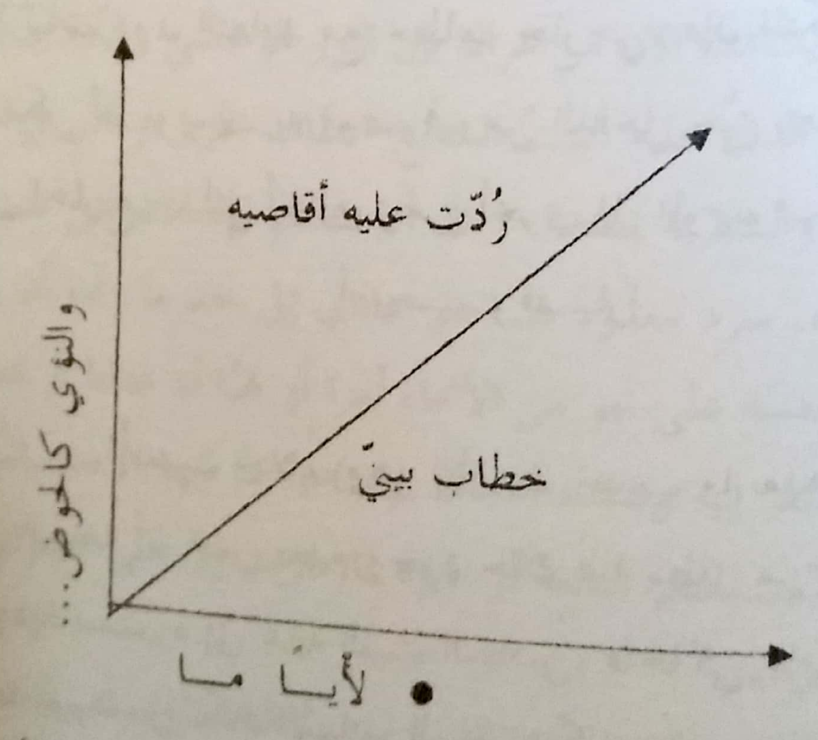
بعودة الضمير في "عليه" و"أقاصيه" يشكّل أمامنا إشكالاً، لأننـا لا نعرف من ردّ على هذا النؤي أطرافه (أقاصيه)، في الوقت الّذي يُصرّح فيه مباشرة بأن أمّةً شابّة من قامت بمطامنة النؤي بتلبيد التراب حتى يلتصق بعضه ببعض. وللخروج من هذا الإشكال، فإننا لا نتعامل مع أي تركيب لغوي من قبيل المجهول، بل لا يوجد تركيب لغوي مجهول في ذاته إطلاقًا، وكون المفعول ينوب عن فاعله المحذوف أو "المجهول" خرافة نحوية مـن اصطلاح النحاة:

- ذَبح الجزّار الشاة/ ذُبحت الشاة.
- سَرق السارقُ المتاعَ/ سُرق المتَاع.

ولمـا تـأخّر:

ولبّده ضربُ الوليدة بالمسحاة في الثأدِ

أي أنه خطاب بيْنيّ، والخطاب البَيْنيّ يفترض فيه أنه خطاب تابع لمـا هو عمودي، فهو أنسب له لكونه خطابًا محكيًّا لا حاكيًا، وموضـوفًا لا واصفًا، ومُخبرًا عنه لا مُخبرا عن نفسه، بمعنى أنه خطاب لا تقوم له قائمة إلا بغيره:



وأهمية الخطاب البيني تكمن في إحداث توازن سردي، غير أن هـذا التوازن غير مباشر، لأنه لا يمسُّ الخطاب الخطيَّ الأفقـي إلا بوسـاطة الخطاب العمودي خلافًا للخطاب الهلالي المرتبط مباشرة بالخطابين معًا.

وأمـــا قـــولـــه:

ولبّده ضرب الوليد بالمسحاة في الثـــأدِ

فهو خطاب بصدد خطاب، ومثله تقريبًا ما ورد في البيت الخـــامس، لأن الحاكي بصدد إنشاء حديث خارجي تأريرًا لحكي داخلي، وبعبــارة أخرى هو في مقام نسج خطاب داخلي عبر خطـــاب خـــارجي، فهـــو متمسك أكثر فأكثر لأفقية مستمرة، ولما كان أي خطاب أفقي لا تقوم له قائمة ولا ثبات دون التعامد مع خطاب خارجي، فإن المتكلم هنا يوهمنـــا بنفاد ما يمكن أن يوصف به موصوف من الداخل حتى يتحلّـــل بشـــرعية وصفه من الخارج، بدليل أنه يعود مرة أخرى إلى الموصوف نفسه:

أضحَـــت قِفَـــارًا

أو:

أمسَت خلاءً (وهو الأنسب بحسب ما بعدها)

ومن البداهة أن نحس بعدم وجود حاك هنا ينطلق من خطاب أفقي، لأن العمودية مستمرة إلى نهاية البيت السادس، فالحاكي غاب عن نفســـه غيابًا له ما يبرره، بل تكاد الأبيات الستة تشكل بنية مستقلة عن ساردها، وعما سيأتي لاحقًا في القصيدة كلها، ولكن التفاتته المفاجئة والهائلـــة في بداية البيت السابق:

فعدِّ عمَّا ترى إذ لا ارتجاع لـــه

أنقذت ما سبق لإنهائه، وطوّرت السرد تطويرا مستمرا، وجعلت حـدا لهيمنة العمودية على الأفقية، أو بالأحرى أعادت السارد من غيبوبته البعيـدة لينتفض صائحًا: "فعِدّ عما ترى،... وانْمِ القُتُودَ"، غير أن صيحته الصاخبة لم تجعله يتنكر لسرده السابق، حتى وإن اجتزأ بنصح نفسه بأن ما حدث لا ارتجاع له حتى يتفرغ ويستعد لمواجهة واقع معيش مرُّه أكثر من حلوه، ولذا فإن نسجه لخطاب أفقي جديد لا يعني إلا الدخول إلى نفسه الولهانة حتى ينسجم ما يصدر عنه مع حقيقة ما يشاهده الآن من عراك بين الثور الوحشي والكلاب.

إن الخطاب الدالّ عليه البيتُ السابع خطاب عزيز ونادر في الأعمال الإبداعية بعامة، والشعرية بخاصة، ذلك أن يتكلم الإنسان عن نفسه، على الرغم من تعقيده، سرد معدود فيما هو عادي إلى حد ما، أما أن يكلّم أو يخاطب المتكلم نفسه على نحو من الأنحاء أمرا أو نهيًا أو عتابا أو تعنيفًا،... فهذا مما تكاد تفتقر إليه وتفقده أعمالنا الإبداعية بما فيها الأجنـاس غـير الشعرية، ولو تتبّعت شعر النابغة أو غيره لما عثرت إلا على الشوارد مـن هذا الخطاب كقوله:

على حينَ عاتبتُ المشيبَ على الصِّبا ... فقلت: أَلمّا تصْحُ، والشيبُ وازِعُ

وإذا كنا حتى الآن اجتهدنا في تعيين عدد الخطابات التي حصرناها في أربعة:

1)- الخطاب الأفقي.

2)- الخطاب العمودي.

3)- الخطاب الهلال أو الوَصْليّ.

4)- الخطاب البينيّ.

الأبعاد الثلاثية للخطاب:

فإلى أي ضرب من هذه الأضرب ينتمي خطاب البيت السابع؟ إذ شتّان ما بين أن يلومك أحد على خير فعلته في لئيم، فأثمر شرّا: "تستَاهَلْ!"[1] وبين أن تحدّث نفسك: "والله، تَستاهل"، فما لِمْتَ به من سواك عتاب خارجي، وما صدر عنك من ملامة لنفسك خطاب داخلي، كأنما الأول عمودي أو يشبهه، بينما الثاني أفقي أو مما يضارعه، ولا نستطيع أن نقول إنه مُنَزّل بين المنْزلتين، وإلا أشبه الخطاب البيبيّ.

أحسب أنه كلما صدر الخطاب من ضمير متكلم إلى ضمير مخاطب، والشخص يخاطب في الوقت نفسه نفْسه، فإن هذا الضرب من الخطاب مما يمكن أن يوصف أو يقال فيه إنه خطاب ذو أبعاد ثلاثية، وهنا كأنما الخطاب موجّه من المخاطب إلى المتكلم (أنت ⇄ أنا)، وليس العكس، لأن المتكلم في موقع ما، هو دائما بصدد قول شيء ما، ولما كان يتعذر عليه أن يجمع بين موقعين: مرسل ومرسل إليه، فإنه يجد نفسه في مثل هذه المواقف الخطابية كمرسل إليه يتلقّى لا كمرسل يبلّغ:

(مرسل إليه أنت ⇄ أنا (مرسل)

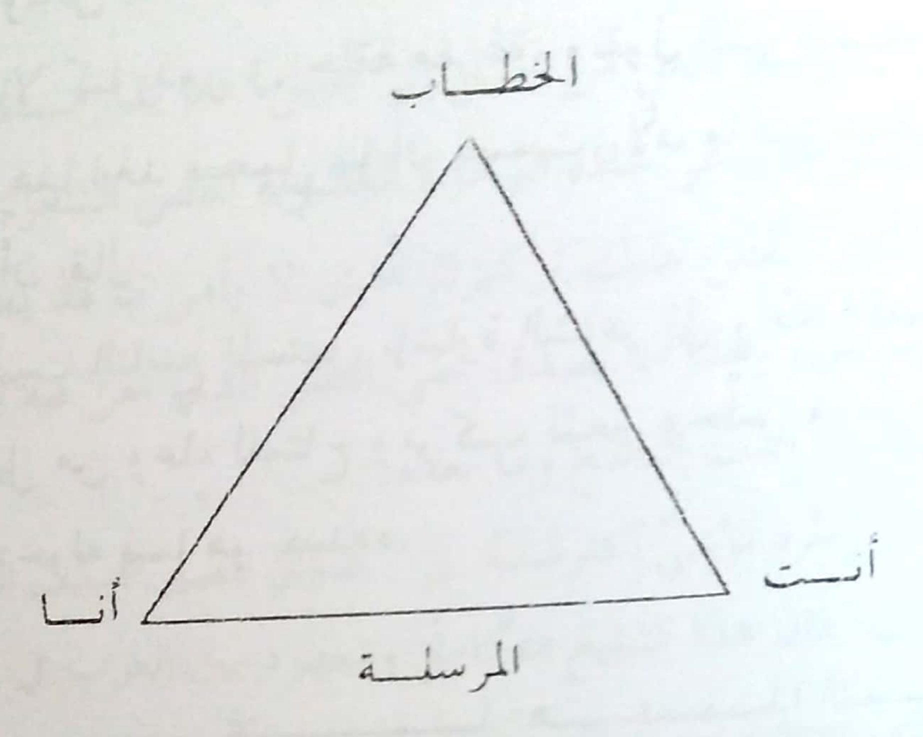
---

1)- أصلُ الكلمة أنّ المستأهل الذي يأخذ الإهالة (الودك أي دسم اللحم)، من الفعل استأهل كقول الشاعر:

لا، بل كلي يا ميّ واستأهلي — إنّ الذي أنفقت من ماليه

أيْ أنت أهلٌ لهذا المال (جديرة به)، فحوّلها العامة عن جهتها، لكن صورها الجارية صحيحة بالنسبة لعاميتنا.

وبتوضيح آخر:



ومن ثم فإن هذا الضرب من الخطاب مما يمكن أن يقال فيه: إنه خطاب عكسي، ويجسد أعلى قمة من قمم الخطابات الأدبية والتواصلية العامة، ومن ثم، فلا ضرر أن يسمّى أيضا خطابا أعلى لأنّ ما بعده مباشرة:

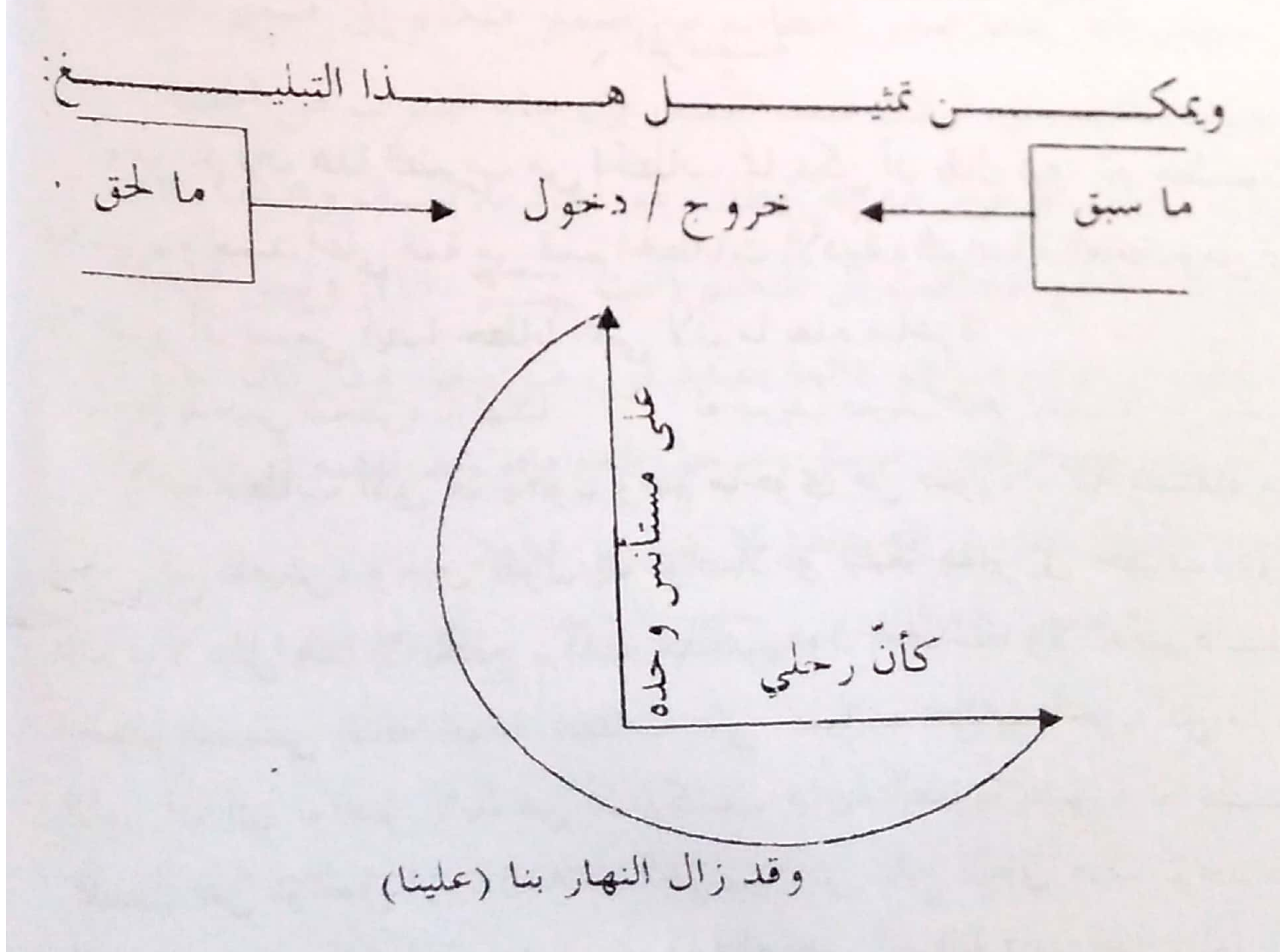
مقذوفةٍ بدخيسِ النّحض، بازلُها — له صريفٌ صَريفُ القَعو بالمَسَدِ

وهو خطاب أدنى ما يكون رغم ماحوى من صورة بيانية مستقاة من قد الواقع المعيش، وحين نقول إن تواصلا أو تبليغًا يشير إلى خطاب أدنى، فإن قولاً مثل هذا لا يقطع برداءة خطاب دون خطاب، ولا يحكم ذلك الحكم التقييمي التافه بجودة خطاب على حساب خطاب آخر. كل ما في الأمر أن أي تواصل لابدّ من أن يكسب هويته العفوية بصورة أو نسق مختلف عن تواصل أو تواصلات أخرى، لكل تبليغ لساني صفة توجد فيه يُفترض فيها سلفًا ألا توجد في غيره، فالعناصر اللّسانية ذات المجال المغلق

واحدة، ولكن بناءها متعدد إلى ما لا نهاية، أي أنها لا تشخّص أشباها ولا نظائر، وإلا كنا ندور في حلقة مفرغة، ونقول الشيء نفسه، وإذا ما آل بنا الأمر إلى هذا الحد فيجمل بنا أن نصمت، لأن ما سبق أن قيــل أشــرف وأولى له أن يقال.

إن البيت التاسع المستهلّ بإشارة الشاعر إلى رحْله المقصود به كلُّ ما يُعدُّ للرحيل من وعاءٍ للمتاع ومَركَب للبعير وحِلْسٍ ورَسَنٍ،... يشير إلى ارتحاعه ودخوله فيما هو بصدده.

ويمكــــــن تمثيـــــــل هـــــــــذا التبليـــــــغ:



وقد زال النهار بنا (علينا)

أي مشكّل من ثلاثة تبليغات، بحيث ينوب كل تبليغ عن خطاب.

التبليغ التكاملي في النص

ما من شكّ، وأنت تنتقل من تحليل إلى تحليل، فلا يفارقك شعور بفراغ أحيانًا يخصّ ما يُدْعى عادة الوحدة العضوية للنص الشعري العربي القديم، الأمر الّذي ينغّص عليك تركيزك الّذي لا يأمن ما قد يعتريه فجاءة من تبلبل وتشويش، وهذا ما يصدق على النص الّذي نحن فيه ونحن نشعر بهوة غير ضيقة بين البيت التاسع وما بعده:

من وحش وجْرة مَوْشيٌّ أكارِعُهُ | طاوي المصيرِ كسيْف الصَّيقَل الفَرِدِ

ومع ذلك، فإن هذا التبليغ متكامل ومعهود بين العرب في تشبيع صفة الثور الوحشي بسيف بتّار يُسلّ ويُغمدُ:

يعلو وتُضمره البلاد كأنه | سيف على شرفٍ يُسلّ ويُغمَدُ

وفضلا عن كونه تبليغًا متكاملاً مستقًى من ثقافة العربي القديم وبيئته، فإنه يؤلف منعرجًا حاسمًا في بنية هذه المدونة التي منح صاحبها نفسًا جديدًا ومجالاً للقول خصيبًا، وحَسْبُ هذا التبليغ حَسْمًا أنه أخرج مُبلّغه من موضوع ممل رتيب وساكن إلى مجال مشوّق ومتحرك لا يخلو من ترقّب وتطلّع وحتى فضول.

الخطاب الانتقالي: لماذا؟

ومما يتماثل لنا أمام وصف يمثله موقف كلامي مثل هذا أنه لا يبتعد من أن يؤلف خطابًا انتقاليًا، ونتصور أن الخطاب الانتقالي ذلك الخطاب

الذي يبعدك ثم يقرّبك أو العكس، فهو يغازلك ويغريك كلما حقق
بعيدًا لتعود إلى مسار ما أنت بصدد التردد أو الانصراف عن إبلائه، أو
يهجرك ويُنفرك كلما رُمت الإقبال أو الإسراف فيما ترومُ احتباكه، وهو
هنا لا يشكل مظهرًا من مظاهر التوازن بين البنيات والخطابات بقدر ما
ينهض بوظيفة بداية نهاية لم تنته بعد، ونهاية بداية تحتاج إلى وصل ما ورد
فيها لما هو مُحتمل وُرُوده بعدها.

وكل تبليغ على هذا النحو تبليغ أقرب إلى خطاب أدنى منه إلى أي
خطاب آخر، فهو فعلاً تبليغ إخباري هائل يذكر لك المكان والزمان
والجنس الموصوف وحركته وشكله وحجمه وخصوصيته يصعب بل
يستحيل على غير الكلمات أن ترسمه.

إلى أي شيء يُعزى الخطاب الخارجي؟

أما ما ورد في البيت الحادي عشر، فإنه خطاب مؤلف من خطابين
خارجيين، لأنه لا يصف شيئا بعينه، بل يجترئ هنا بإضفاء ظواهر طبيعية
طارئة طرأت على الموصوف لا قِبل له بردّها، وهذه الظواهر الطبيعية
رُصدت رصدًا دقيقًا من حيث زمانها ومكانها وعنفوان حدوثها ليلاً
دامسًا، ومطرا هاطلاً، وريحًا باردة، وثلجاً جامدًا صلبًا قاسيًا.

وكل خطاب خارجي، كما أومأنا، أنسب انتماء إلى العمودية منها
إلى الأفقية، فلو كان المتكلم يترجم عن لسان حال هذا المخلوق لكان

أنسب أفقية منها إلى عمودية، ومما نؤكده مرة أخرى أننا لا نقصد هذه الأوصاف ما يطلق على أوصاف المناهج من سانكرونية (تزامنية) ودياكرونية (زمنية)، وهذا موضوع آخر، بل نقصد بهما ما ينبئ كل تبليغ عن نفسه، ووصف عن موصوفه، وسرد عن مسروده، وتركيب عن مركّبه، ومتحدّث به عن متحدّث عنه، وهي ليست أكثر من رُؤًى لقراءة قد تكون سلبية، ولا تكون إيجابية، والمتلقي المتروّي لهذا التحليل من سيكون المحكّ الشعري لقبول أو دحض هذه الرؤى.

أيًا كان الأمر، فإن كل تبليغ على النحو الّذي جاء في البيت الحادي عشر يبدو لنا، وكأنه تبليغ هو بصدد قول شيء عن غيره من باب أن الموصوف أو المتحدث عنه لا يصدر عن حال نفسه، والّذي يعنينا في هذه الحالة الأوضاعُ المحيطة بالموصوف لا الموصوفُ ذاتُه.

الخطاب الافتراضي ولعبة الضمائر

وقد يختار مُتلقٍّ يُهيّأ له أن يصطدم بهذه الفكرة، كاختيارنا من قبله، إذا ما خطر على باله تساؤل بريء كخُطوره ببالنا من قبله: أنّى لتبليغ أو خطاب يُشفع له أن يكون عموديًا دون ركيزة أفقية أو خارجيًا دون نقطة انطلاق داخلية؟ وهل يعقل أن ينطلق نص أو تواصل من اللاشيء نحو أشياء؟ وماذا يمثل المتكلم هنا؟ أين نضعه أو نُموْقِعُه؟ كان بودنا لو تركنا هذه التساؤلات بيضاء، ولكن تصادم أفكار قادنا إلى انه كلما وجدنا

أنفسنا أمام موقف خطابي مثيل لهذا، وجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار
خطابًا افتراضيا موجودًا ضمنيا سواء شعرنا بذلك أم لم نشعر، وهذا
الخطاب الافتراضي ليس مما يمكن أن يقال فيه إنه خطاب داخلي أو
خارجي، بل كل ما يمكن أن يقال فيه: إنه خطاب فضائي سابق الوجود،
وهو خطاب أولى من أن يكون أفقيًا وداخليًا منه عموديا وخارجيًا، لأن
هذا الأخير موجود بقوة الفعل، وعليه، فإن كل تبليغ ينحو هذا النحو
ممكن رصده بأنه تبليغ غير مباشر، لكنه يكاد يعدم صفة الخطاب.

سرت عليه من الجوزاء...

تبليغ غير مباشر

على حين أن التبليغ الثاني عشر يختلف تبليغا عن التبليغ الّذي سبقه،
بحكم أنه انتقل من وصف ظواهر خارجية إلى التعبير عن أحاسيس الثور
الوحشي الداخلية الّذي وقع في رُوعه (خَلَده) ارتياع شديد من صوت
الكلاّب، مما جعله يقضي ليلة بيضاء، ولا يثق حتى في شوامته (قوائمه) التي
قد تُسرّ إذا ما وقع صيدًا ثمينًا بين يدي طارده.

ومن ثَمَّ فإن الضميرين الغائبين في التبليغ الحادي عشر والثاني عشر مختلفان، ولا صلة بينهما إلا لكون كل منهما ينتمي إلى ما يسمى الضمير الشخصي الثالث، ذلك أن الضمير (هي) في التبليغ الحادي عشر يتعلق بتبليغ خارجي واقعي ينبثق من تبليغ فضائي افتراضي بقوة الفعل السابق عليه، في حين أن الضمير (هو) في التبليغ الثاني عشر تبليغ مباشر طالما أنه يصف مخلوقًا وصفًا داخليًا، كأنما يتواصل المتكلم مع نفسه نيابة عن موصوفه، أي أنه ينقل إلينا صورة حية لا تحدث، إذا ما حدثت، وما أكثر ما تحدث!، إلا من أفقية بفعل قوة خارجية، حتى كأن العمودية هنا تسبق فعلا الأفقية، يدعونا إلى مراجعة حساباتنا في هذا الشأن، أي قد يتراءى تبليغ في مجال أفقي، وهو في بنيته البعيدة عمودي، والعكس لا يُردُّ ولا يُدْحَضُ وهذا هو حالنا مع التبليغ الثاني عشر:

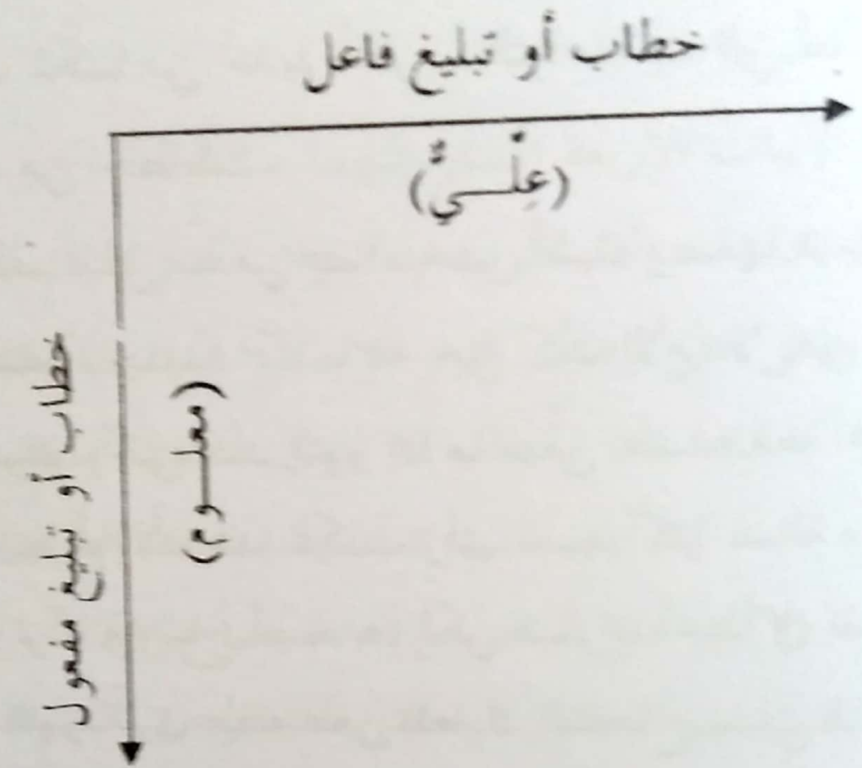
فارْتاعَ من صوت كلاّبٍ، فبات له طَوْعَ الشوامِتِ من خَوْفٍ ومنْ صَرَدِ

لأن المتكلم لا يشخّص لنا الموصوف من الخارج، بل يجسّده تجسيدًا نفسيًا وحتى سوسيو ثقافيًا من الداخل، فالثور الوحشي لا يخشى الوقوع فقط في يد الكلاّب، بل ما يخشاه أكثر، ويحتاط له ألا يُشْمِتَ به شامِت حتى قيل: "اللهمّ لا تُطِيعَنَّ بي شامتًا" أيْ لا تَفعل بي ما يَسُرّه، ولذا فإن هذا التبليغ ضمنيًا تبليغ أفقي، وشكليًا تبليغ عمودي،وقد يجوز أن يوسم بسمة التبليغ المعكوس.

ومما هو شائع بيننا حتى اليوم أن الضمائر عادة ما تُوسم بسمات واحدة، والّذي يدلّ عليه أي تبليغ لغوي أو توظيف لساني يدحض هذا الشيوع المسلّم به بين اللغويين والمحلّلين للعمليات التواصلية في مجال اللّسان، بينما لا يمثّل كل ضمير شخصي إلا الموقف الخطابي الّذي يتماثل فيه تماثلات تتعدد بتعدد المواقف التبليغية والخطابية حتى وإن ظلّ عدد الضمائر ثابتًا، إذ لا يذهب راشد إلى أن الضمير "الشخصي" الثالث الّذي وُظّف في البيت الحادي عشر هو عينه وُظّف في البيت الثاني عشر، وأنّ هذين أُعيد توظيف أحدهما في البيت الثالث عشر! و"بتّهنّ" غير "استمرّ بهِ" (أسرعَتْ به قوائمه)، وإلا قلنا إن عدد التواصلات اللغوية لا تتجاوز عدد الضمائر المرصودة في لغة، بل لقلنا بانتهاء التوليد اللغوي، وانحسار العملية الإبداعية، وهذا ما لا يتماشى مع اللّغة نفسها.

ومن ثمّ، فإن التركيب "فَبَتّهنَّ عليه" مختلف عن التركيب الباقي في سائر البيت الثالث عشر، ولذا فنحن أمام ضميرين مختلفين، وخطابين متباينين، لأن بنية "فَبَتّهنَّ عليه" غير بنية "واستمرَّ به"، ودون أن ندخل في تفاصيل وظيفة كل من الفاء والواو اللّتيْن تصدّرتا البنيتين، وإلا خرجنا عن منهجنا، فإن تعريش الكلاب كلاّبه وتفريقهنَّ لمطاردة الثور الوحشي يشكل خطابًا عِلّيًا أو فاعلاً، بينما استمرار الثور في عدوه مسرعًا لا يكاد يلْوي على شيء يجسّد خطابًا معلولاً أو مفعولاً، ومن البداهة أن التبليغ

الفاعل لا يناسبه إلا وضع أفقي خلافًا للتبليغ المفعول الّذي لا يتناسب إلا مع وضع عمودي.



في التواصل الرابع عشر، نلاحظ أن الضمائر المباشرة تختفي، خاصة إذا ذهبنا مذهب من يرفع "طعْنُ" فاعلاً للفعل "يوزعُهُ"، لأنّ المتكلّم بصدد نسج حكْيٍ جديد يتصل بكلب بعينه (ضمران) دون سائر الكلاب، وعلى المتلقي أن يكون بصيرا بالمستويات اللّغوية لمدونته التي يتخذها سبيلاً لعمله، ومطية لتحليله ولو ضمنيًا كلما رام الحديث عن تحليل هذه المدونة، وهذا ما يصدق على بعض التراكيب الواردة في البيت الرابع عشر، إذ شتان بين رفع "طعنُ" وبين "نصبه"، وشتان بين رواية "النجدِ" بكسر الجيم (الّذي يَعْرَق من الكرْبِ والشدّة) وجعل وظيفته النحوية نعتًا لـ"المُحْجَر" (المُلجأ)، وروايته بضم الجيم (الشجاع) وجعل وظيفته النحوية نعتًا لـــ

"المعارك" (المقاتل)،ولا تُعدّ هذه المعارف اللغوية ثانوية، بل جوهرية، ولا عالة على القراءات المدّعية —على الأقل- أنها جديدة، بل جزءا منها؛ لأن هذه المعارف تمكّننا من تحديد أضرب التواصلات التي تُعدّ شكلا أساسا لأي خطاب من الخطابات.

إن المتكلم انتقل بنا من فضاء خص أشياء وصفها فيما سبق إلى فضاء أدخل فيه عنصرًا جديدًا سمّاه باسمه حتى كأن الأمر لا يعني إلا هذا الكلب المسمّى ضُمران،وحتى كأن الثور إذا ما صفّى حسابه معه أنهى حساباته مع سائر الكلاب، أو لأن هذا الكلب رأى نفسه أكثر بسالة وثقة من أبناء جلدته أمام تردّد وارتياع أصحابه، لكن ضمران أخطأ في تقديره حين اقترب من الثور الّذي طعنه طعنَ المعارك الشجاع بشكّ قرنه فيه مثلما شكّ أو انتظم بيطري آلته في بعير لعلاجه من عَضَدِه (داء يصيب الإبل في أعضادها من ثِقَل حِمْلٍ)...

صورة سرديّة

إن الأبيات من الرابع عشر إلى السابع عشر تبدو و كأنها تمثل سردًا وصفيًا مشتركا لضمران والثور ناسجة صورًا متتالية تكاد تكون مستقيمة لولا تداخلها تارة، وتناوبها مرة، الأمر الّذي جعلها تنحصر في ضمير متحدّث عنه تعدُّنًا ازدواجيًا، وإلا فشتان ما بين وصف الكلب ضمران بوصفه حيوانًا محرّشا مغرّرا به وبين الثور الوحشي المنافح عن نفسه، وتمثل

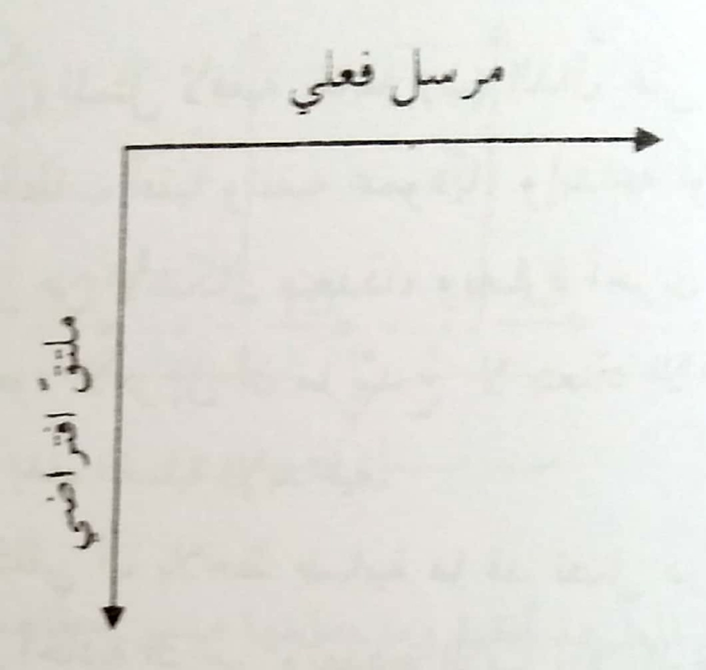
دور السارد في الترجمة عن كل واحد منهما وما لحق بهما، وحل محلّهما ليتواصل مع الآخر نيابة عنهما غير مأذونة منهما، لأن الغائب لا يتحدث عن نفسه إلا إذا كان حاضرًا.

ويُلاحظ في الأبيات الأربعة المشار إليهما سالفًا قدْرٌ كبير من التوازن الحكائي، فالموصوفان (ضمران، الثور) مذكوران معًا في البيت الرابع عشر، ويكاد الخطاب يطغى على وصف الثور الوحشي في البيت الخامس عشر، ولكن الأمر غير كذلك، لأن الخطاب لا يجري مستقلاً أو مستغنيًا عن خطاب نظير له، إذ ما كان يتهيأ للسارد أن يصف أحد الطرفين في هذا البيت لولا وجود الاثنين على الرغم من أنه لم يُصرِّح إطلاقًا بالطرف الثاني، ولكن المتلقي يعلم أن الثور الوحشي أنفذ قرنه في ضمران كما يُنفذ طبيب الحيوانات آلته في بعير لشفائه من دائه، بمعنى أن ثمّت خطابًا ضمنيًا لا يلبث أن يُرادف بخطاب ضمني آخر في البيت الموالي باعتبار الضمير المتصل في (كأنه) يعود على المدرى (قرن الثور) لا على ضمران، ولكن هذا الأخير يكاد يكون موجودًا صراحة لأنه مقام الحديث الّذي رسمه هذا العربي الأصيل بتركيب لغوي غريب بالنسبة للغتنا الآنية، لأن الحال (خارجًا) ينوب عن جملة اسمية، وعليك إذا أردت أن تفهم فهمًا سليما وسريعا أن تقرأ: "كأن المدرى، وهو يخرج من جانب الكلب، سفودُ..."، وأحدث التشبيه المفصّل صورة خارجية في الخطاب لم تكن في الحسبان تنبئ عن نفسها من خلال القوم الّذين كانوا يشربون ويشتوون دلّ عليهم

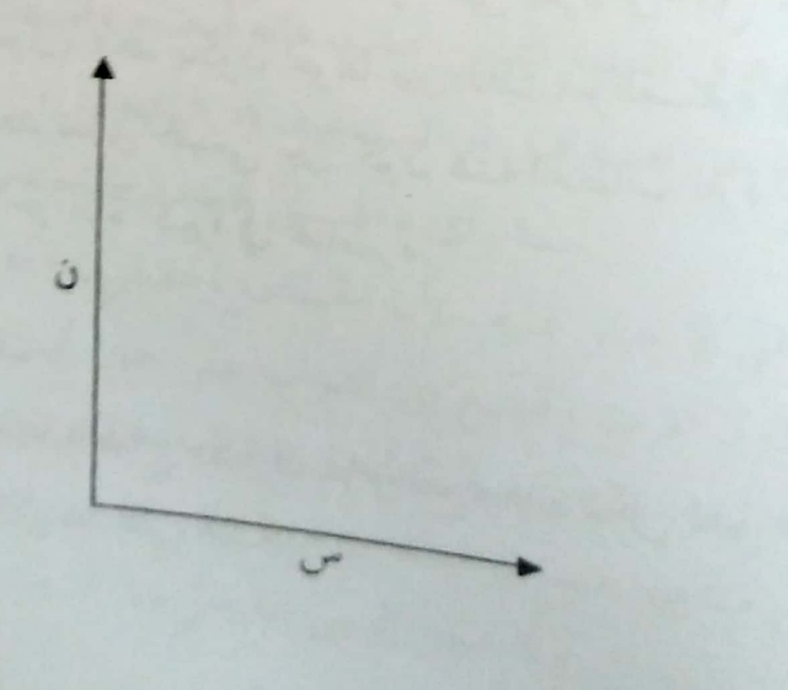
آثارُ نارهم أو ما يُسمّى المُفتَأد، ليستغلهاالسارد ويرسم بها لوحة ناطقة قائمة بذاتها، لكن الكلب المبقور أو المشكوك لم يغادر بَعْدُ هذه اللّوحة، خاصة إذا راعينا دلالة الفعل (ظلّ) المشير إلى وقت أطول من أفعال نظيرة له، خاصة وأن الخليل ذكر أن العرب لا تقول (ظل) إلا لعمل يكون بالنهار فضلاً عن كون السارد استعمل خبر (ظل) جملة فعلية دالة إمعانًا في استمرار المأساة التي آل إليها حال هذا الكلب الّذي عبث به الثور أيّما عبث، غير أن الرابط بينهما موجود، لأن الكلب ظل يعض قرن الثور (الرّوق) متقبّضًا عليه عضّ من لا حول له ولا قوّة.

الخطاب بين المرسل الفعلي والمتلقي الافتراضي

إننا في خطاب مثل هذا يدعونا إلى التساؤل عن عناصر التبليغ، وضرب هذا التبليغ نفسه، أين المرسل؟ المرسل إليه؟ أين يُصنّف هذا التبليغ، لأن كل تبليغ يُصنَّف عَنْوَةً مقام تبليغ آخر، ليس إلا تبليغا مبتذلاً، وهو خارج التصنيف، أي لا يرقى إلى درجة أن يُلْتفَت إليه؟ وإذا سَهُل علينا أن نحدّد هوية المرسِل المتشخّص في الشاعر، فهل يَيْسُر علينا أيضًا أن نعين طبيعة المرسل إليه؟ يمكن لهذا اليُسر أن يَحْدُث إذا اعتبرنا أن الإرسال ليس موجهًا لِمُرْسَل إليه بعينه، ولذا كنّا أومأنا قبل قليل إلى أن الأبيات الأربعة تكاد تمثل خطابًا مستقيمًا، لأنه لا توجد عمودية إلا بداية من البيت الثامن عشر (لما رأى واشق...) وهنا نجد أنفسنا نتعامل مع مرسِل فعلي مقابل مرسل إليه افتراضي، لِيكُن ما يكون:



والخطورة التي تكمن في المتلقي الافتراضي أنه متلقٍّ ليس فقط مجهولاً أو عامًا بل لكونه أيضًا متعددًا تعدّدًا لا نهائيًا، ومن هنا يستحيل عليك أن تضبطه فضلا عن أن تطمح في تحديد هويته، أي كل مرسل فعلي يقابلـــه متلقون؛ فإذا رمزنا للأول بـــ (س)، والثاني بـــ (ن) فيكون التصور على النحو:

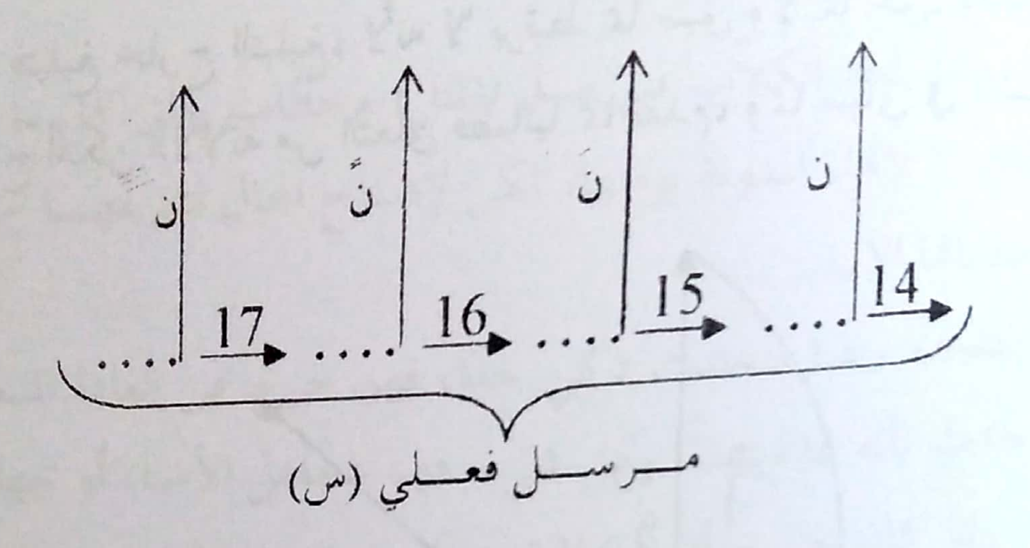


بمعنى أن (س) الممثل لأفقية يقابله (ن) الدالّ على عمودية لا نهائية، ومن هنا كان الخطاب أفقيًا وتلقّيه عموديًا، وإبداعه أو إحداثه أحاديًا وتلقّيه بأي شكل من الأشكال متعددًا، وبعبارة أخرى إبداعه تزامني وتلقّيه زمني، ويعود الأمر إلى أن ما يُبْدَعُ لا يتعدّد إلا بغيره، على أن يطفو تعدّده فور إنهاء العملية الإبداعية.

ومن حقّ المتلقي أن يلاحظ ضبابية ما قد تصل درجة التناقض، وهو يتساءل: ما معنى أحادية التزامني وتعدّدية الزمني، في الوقت الّذي زُعِم فيه أن الأبيات الأربعة السابقة (14، 15، 16، 17) تكاد تطرد في سلسلة خطية أفقية؟ بل زُعِم أن (س) الممثل لأفقية لا يقابله إلا (ن) المشير إلى عمودية لا منتهية، وإذا رغبنا الخروج من هذه الضبابية، فلك أن تتصور أن التبليغ سرديًا ليس مُلزمًا بكلمة أو جملة أو حتى فقرة في كل حال، فقد يَقصُر مثلما قد يطول، وقد يكون عوانًا بين ذلك، والعبرة في درجته التبليغية التي لا يوجد تَعالُقٌ حميميٌّ بين كون هذا الخطاب تارة صغيرًا في وحداته، وكون الآخر مرة كبيرًا في عناصره.

تمثيل الخطاب

وإذا ما كان لدينا انطباع مشترك بما وُضّح، فإنه يمكن تمثيل الخطابات الواردة في الأبيات الأربعة على الشكل:



حيث التبليغات المطَّردة أفقيا وما يقابلها من خطابات عمودية افتراضية:

س(14، ن)، س (15، نَ)، س (16، نً)، س (17، ن)

لأن الخطاب إذا كان يصدر عن شخص بذاته، فإنه لا المتلقي ملزم به دائمًا ولا الباث مجبر في كل حال بإرسال مرسلته لمتلقٍ بعينه.

أما ما ورد في التبليغ الثامن عشر، فإنه أوضح وابسط حتى إنه لَيُوشِكُ أن يفصح لك عن نفسه قبل أن تستوعبه، إذ التبليغ:

لَمّـا رأى واشِـقٌ إقْعَاص صاحِبه

تبليغ أفقي لا غبار عليه، لأن الخطاب الحقيقي ما يُعبّر عنه، وليس ما يُعبَّر به، فالأول أقرب وأجنح إلى الثبوت على حين أن الثاني متغير، أي الأول بنية عميقة، والثاني بنية سطحية، فالرؤية هنا مرتبطة بالكلب واشق، وهو يتفرس صاحبه ضمران معلقًا في قرن الثور الوحشي ميتًا، وأما التبليغ:

ولا سبيلَ إلـى عَقْـلٍ ولا قَـوَدَ

فتبليغ خارج التبليغ، لأنه لا يرتبط بما سبق ولا بما لحق، ولكنه فسّر شارح أمكن دلالاته من التعلّق فضائيًا مما تقدم، وبما سيأتي في البيت التاسع عشر:

قالت له النفس...

خ.عمودي

لما رأى واشق

خ.أفقي

وإن مولاك لَم يسلم ولَم يصد

(خ.هلالي إغلاقي)

الذكاء السردي في النص

ما أروع خطابًا يَرِدُ على نحو ما ورد في البيت التاسع عشر، فهو ليس مجرد حوار بسيط بارد يقتضيه موقف الكلام، بل هو حديث داخلي بصدد وقف السارد المتسلط، فتحيّن المسرودُ له الفرصة للتغير عن نفسه إيجازًا وبيانًا وفصلاً، فالمسرود له (واشق) لا يرغب، وقد رأى ضُمرانَ يموت موتًا وحِيًّا (سَريعًا)، أن يحصل له ما حصل لصاحبه، إنه خطاب يدل على

يأس واشق مما يأمله الكلاّب من صيد فاشل، وخطاب يغلق كل ما سبق من تبليغات لا لإنهاء المدونة برمتها، لكن لإفساح المجال لتنويعها حتى تتنوع خطاباتها الآتية.

إن المتحدث هنا متحدث ذكي جدًا، فهو خرج عن العادة المتبعة في ايهام المتحدث بأنه عالم سلفا بكل شيء، فهو يتجاهل الأشياء أو يجهلها فعلاً، إذ ربما كان يحسب أن مية لا تبرح ثاوية بالعلياء، إذا به لا يجد إلا أطلالاً لمثواها، لينتقل متدرجًا في وصف ما لم يكن يتوقعه لرحله، وقدوجد نفسه في فلاة ربما فرضت عليه فرضًا كمسار معتاد إتباعه لِما تُنبتُ أرضه من جليلٍ (الثُّمام وهو نبت ضعيف يُحْشَى به خَصاص البيوت)، ولكونها فضاء مفضّلاً للصيد لاحتوائه على مَجْمَع الوحش، وبينا هو عابر سبيله عافصته أمطار وثلوج، ليلتفت إلى وصف ما اعترى الثور من ارتياع شديد من صوت كلاّب وهو يُشْهِنَّ عليه، ويُغريهنَّ به. فكان أحد الكلاب المسمّى ضمران أول ضحية مما جعل نظيره واشقًا يتروّى حيطة أو جبنًا.

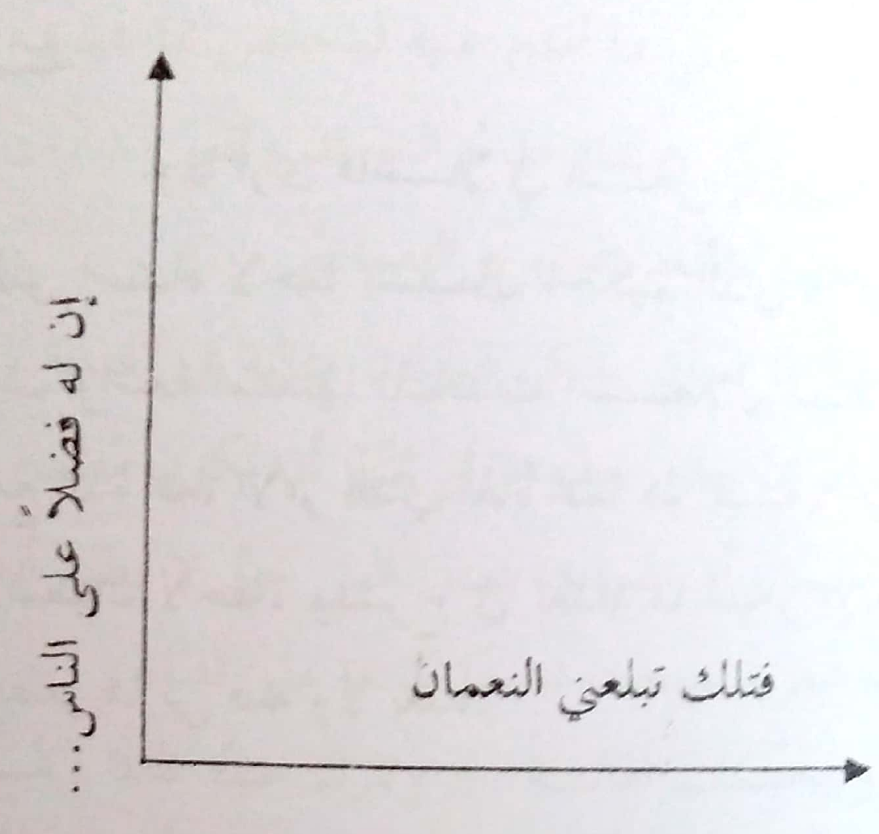
إن المتحدث، وهو يسرد لنا هذه الوقائع الواحدة تلو الأخرى، هل في نيته أن يبلّغنا بلاغ ما حدث له أم هو بصدد وصف حيادي غنائي أو افتخاري (فانتستيكي)؟ أيًا ما رجّحنا، فهو بصدد قول شيء أضفى عليه أوصافه وهُويّته وزمانه ومكانه وأحداثه واضعًا كل شيء موضعه، ونسج لكل خطاب تبليغه غير تاركٍ تَساؤُلاً وراءه، مما يُسهّل مأمورية المتلقي. وهو يتلقى هذه المدونة الشهية حتى يصل إلى ما نحن فيه.

انتهاء الخطاب بانتهاء الإيصال

إن إسناد المتحدث الخطاب إلى الناقة لم يكن بدْعًا منه، وقد سبق أن فعل الشيء نفسه مع حيوانات أخرى، لكن كيف فضل استعمال اسم الإشارة المشير إلى البعيد،وناقته معه؟ نحن لا نتجاهل إنزال البعيد بإشارة قرب حينـــا وإنزال قريب بإشارة بعيد حينًا آخر، مثلما عليه الحال هنا مع "فتلك"، ولكن الإشكال يكمن أيضًا في تصدير اسم الإشارة بالفاء التي لا علاقة لها بكونها عاطفة على الترتيب والتعقيب مع الإشراك، ولا دالاًّ ما قبلها عِلّةً لما بعدها دون إشراك، ولا مشيرةً إلى ابتداء كما هو الحـــال في جواب الشرط، وهل وظّفت كما وظّفها امرؤ القيس في موضع جر (بمعنى رب):

فمِثْلِكِ حُبْلَى قد طرَقْتُ ومُرْضِعٍ　　　　فأَلْهيْتُها عَن ذي تَمائِمَ مُحْـــوِلِ؟

وإذا أراد الشاعر بها استئنافًا، أي ليبتدئ كلامًا آخر جديدًا، فإنـــه لم يوظف "أبلغ" بمعنى "أخبر" أو "أعلم" الناصبتين ثلاثة مفاعيـــل، وإلا لمـــا كُسرتْ همزة "إنّ" بعد المفعول الثاني (النعمان)، لأن السياق لا ينقاد له، فالمتحدث يريد بالإبلاغ الإيصال أي توصله إلى النعمان لقوتها وصلابتها، ومن ثمّ فإن الخطاب ينتهي بانتهاء مهمة الإيصال بالنسبة لناقتـــه، ولـــذا صرف الحديث عن ناقته، وجعل هو يتكلم بنفسه عن النعمـــان ويعـــدّد مناقبه التي تعوّد أن يغدقها على الرعية والناس قريبهم وبعيدهم.



يشرع المتحدث بدءًا من البيت الواحد والعشرين في الرجـــوع مـــن خطاب طغت عليه علامات خارجية إلى خطاب متجدد ستطغى عليـــه علامات داخلية، فتكاد الخطابات المتقدمة تخلو من مثل هذه العلامـــات باستثناء:

- وقفت فيهـــا... أسائلهـــا.
- لأيـــا مـــا أبـيّــنـــهـــا.
- فعدّ عما تـــرى... وانمِ القتود.
- كـــأن رحـــلي... زال النهار بنا.
- إني لا أرى طمعًا... وإن مولاك.

على عكس ما نجده في الأبيات المتتاليـــة (21، 22، 23، 24، 25، 26، 27) حتى وإن ظلّ تبليغه "فعدّ عما ترى" تبليغًا يتيمًا لا مثيل لـــه في المدونة كلها.

إن تبليغه:

ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه

تبليغ مطلق استثناه لاحقًا بسليمان الحكيم الّذي دارت حوله قصص دينية وحكايات واسعة استغلها المتحدث استغلال الفارس المتمرس للتواصل بها مع ممدوحه، الأمر الّذي ألهاه عما هو فيه، حيث يؤجل الحديث عن النعمان لاحقًا، ويشرع في تَعْداد ما سخر الإله لسليمان من معجزات لم يظفر بها نبيّ قبله ولا بعده.

تداخل الخطابات وتوازنها

طوال الأبيات السبعة (من 21 إلى 27) تتداخل الخطابات دون أن تتمازج وينصهر بعضها في بعض، وتتواتر التبليغات دون أن تتكرّر أو يشبه لاحقها سابقها، وعلاوة على ذلك، فإنك لا تحس بهرولة سردية قد نشعر بها في اقتباسات وتناصات هنا وهناك، فأنت تتلقى هذه الاقتباسات والحكايات وكأنها تحدث الآن، وكأن أحدًا لا يعرف سليمان الحكيم وقصته مع الجن، ويظهر أن المتحدث أحس بذنب ظل يصاحبه، ولذا لم يفصّل حديثه ولا أشار إلى أحداث اشتهر بها سليمان مع الجن والطير وبلقيس وغير ذلك، الأمر الّذي جعله يردف هذه القصة التي كان العرب يستلذونها استلذاذًا بقصة أغرب تغلب عليها المبالغة والأسطورة لكنها عند العرب ألذّ، وبينهم أشيَع.

أجل، أقدم المتحدث على ما أقدم عليه ليتخلص مما هو فيه دخولاً إلى موضوع أكثر أهمية مما ذكر جميعا: مدح النعمان ونفي وشايات منافسيه للمدوح بتغزّل المتحدث بالمتجردة زوج النعمان.

وقبل هذا، مهّد لما سيأتي بذكر صفات مثالية في الهداية والصواب والرشاد تمنى للنعمان أن يحذو حذوها أو تمنّى أن تكون مُضفاة عليه عسى أن يَرْشد برشاد سليمان أو صواب بنت الخس حتى لا يظلم أحدًا ظلمًا باطلاً لمجرد أبيات شعرية نسجت نسجًا كاذبا على لسانه:

أتُوعِد عبدًا لم يَخُنْكَ أمَانَةً ... وتترك عبدًا ظالمًا وهو ضالعُ

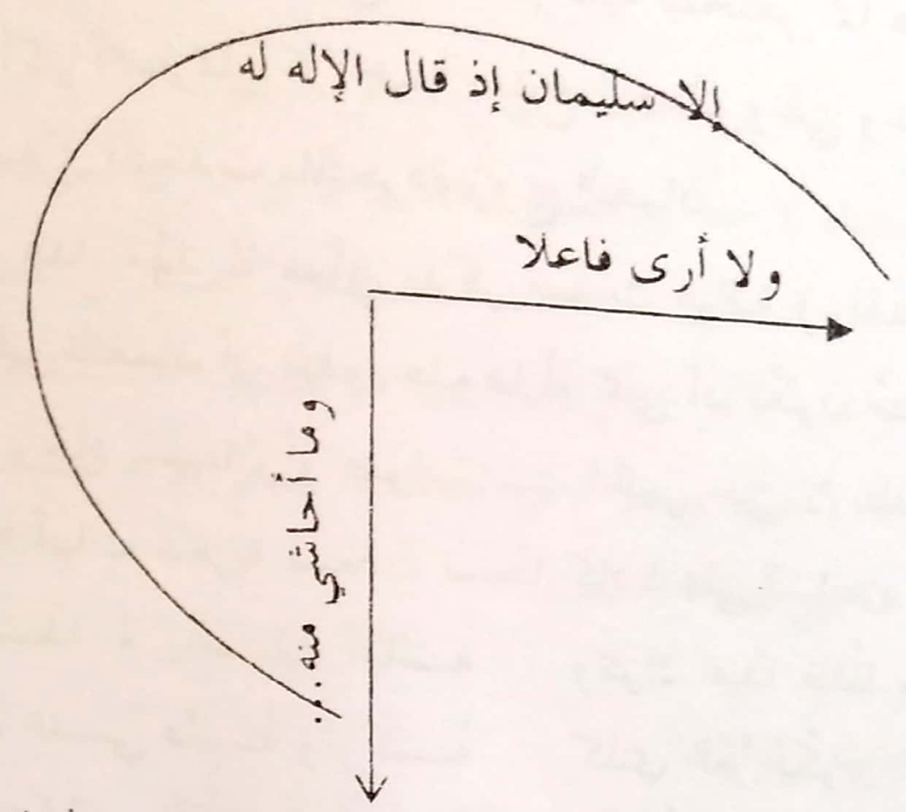
حَمَلْتَ عليَّ ذَنْبَهُ وتَرَكْتَهُ ... كذي العُرّ يُكْوَى غيْرُهُ وهو رَاتِعُ

وذاكَ أمْرًا لم أكُنْ لأقُولَهُ ... ولَوْ كُبِّلَتْ في سَاعديَّ الجوَامِعُ

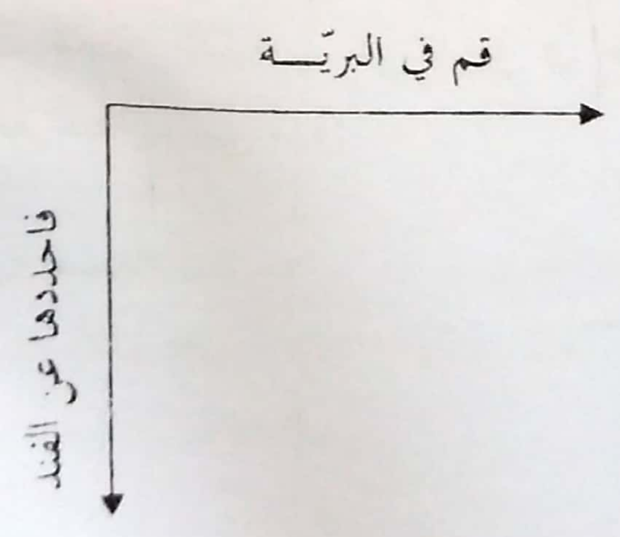
أتاكَ بقَوْلٍ لَهْلَهِ النَّسْجِ كاذِبٍ ... ولَمْ يَأتِكِ الحقُّ الّذي هُوَ نَاصِعُ

لعَمْري وما عمري عَلَيَّ بِهيِّنٍ ... لقدْ نَطَقَتْ بُطلاً عَلَيَّ الأقَارِعُ

وتغلب على الأبيات السبعة توازنات خطابية ما بين أفقية وعمودية، وتداخلت ببعض التبليغات التي تدخل في خانة خطاب هلالي أو وصلي تارة أو خانة خطاب بيني مرة:

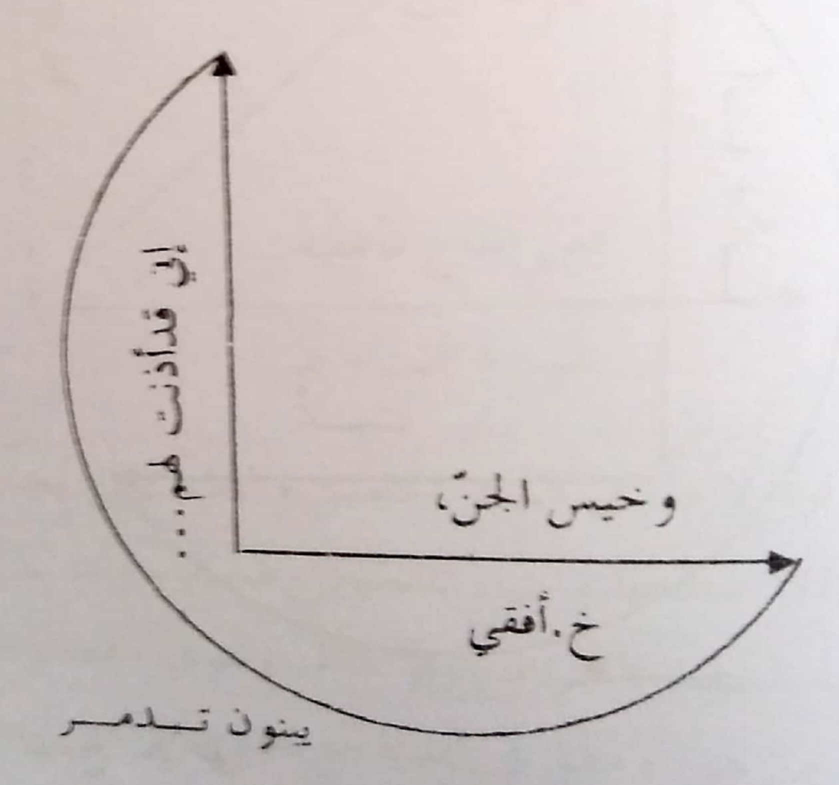


لأن المتحدث خرج من خطاب ودخل في خطاب آخر، ثم انتأى عما هو فيه بذكره شخصية دينية وتاريخية لم يجد لها مقاسًا في رفعته دون مقام النعمان لذا كان التبليغ: "إلا سليمان..." تبليغًا هلاليا أو وصليًا، لأنه بقدر عزلته وانتيائه تكفل بالوصل بين ما كان بصدده وما سيعود إليه:



أي لماذا يقوم في البرِيّات (الخلق)؟ من أجل أن يمنع الظلم والخطأ عنها، لذا جاءت الفاء قبل التبليغ العمودي، لأن ما قبله في التبليغ الأفقي (قم في البرية) علة لِما بعده (فاحددها...).

وبالمثل، تبليغ "وخيِّس الجنّ (ذلّلْهَا)" يشكلّ تبليغًا أفقيًا لكونه تبليغًا منتهًى ليس له جواب بدليل علامات كثيرة، منها كسْرُ همزة "إنّ"، الانتقال من جملة فعلية إلى جملة اسمية، الأفقية إنشائية، والعمودية خبرية إنكارية،...



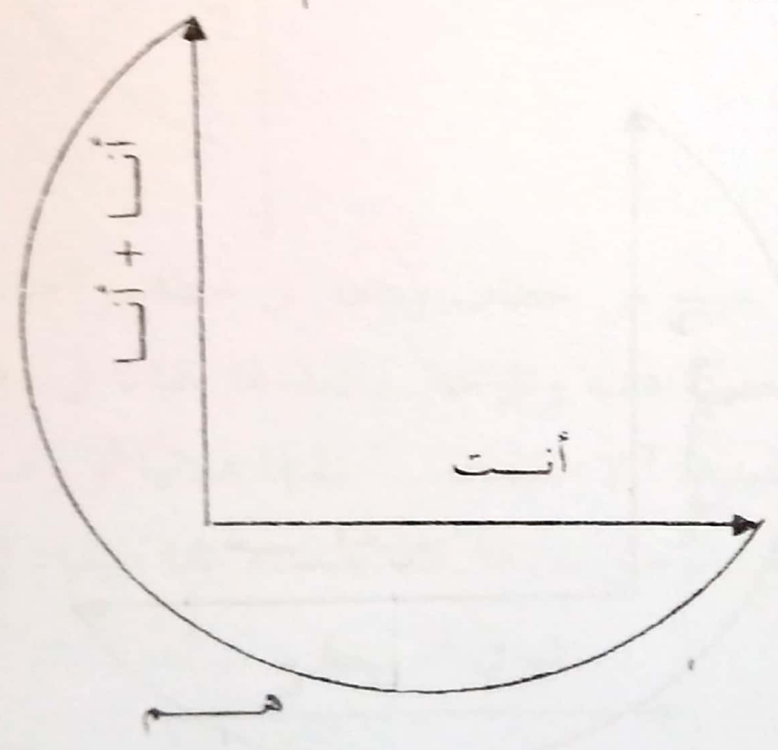
تبليغات معقّدة تحتيًا

ويبقى مع ذلك التبليغات الآنفُ ذكرها معقدة شديدة التعقيد على مستوى بنياتها العميقة الكامنة ضمنيًا هنا تحت تناول الضمائر التي تظهر لنا

سطحيًا، وكأنها عادية، في حين أنها أعقد مما نتصور، إذ يمكن رصدها

شكليًا:

- وخيس الجن ← أنتَ.
- إني قد أذنت لهم ← أنا + أنا.
- يَنُــون ← هــم.
- أي: أنتَ ... + أنا + أنا ... + هم:



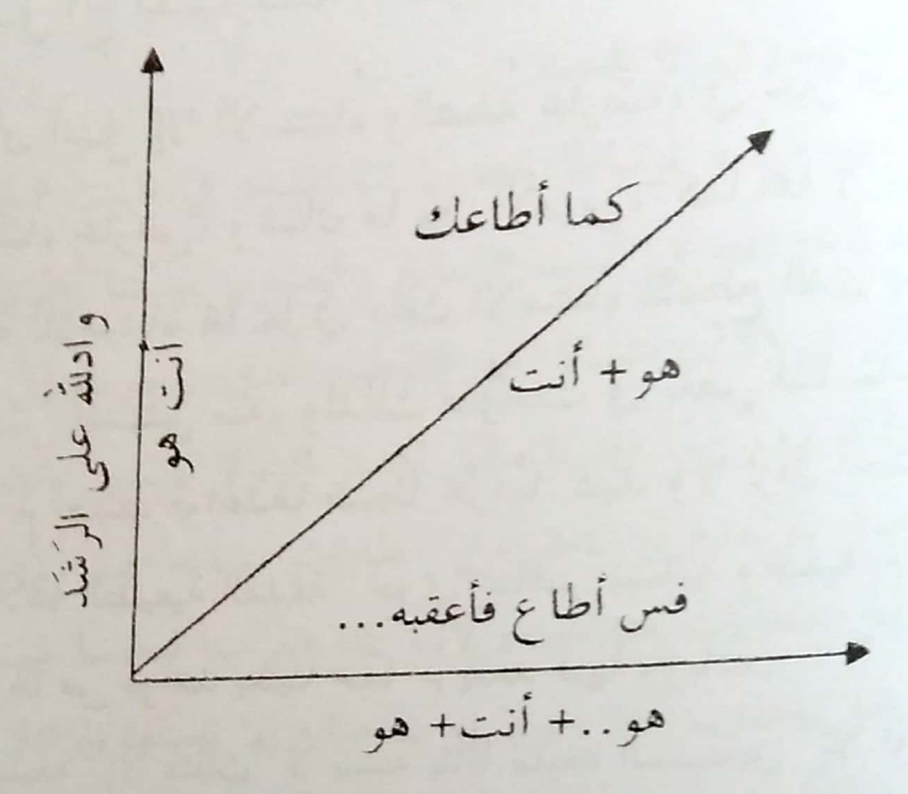
بينما التبليغ اللاحق:

فمن أطاع فـأعْقَبْه بطاعتــه كما أطاعك، وادْلُله على الرُّشد

تبليغ أقل تعقيدًا من السابق ظاهريًا على الأقل لكونــه قريبًــا مــن التجانس، لأن التبليغ يسير على النحو:

هو..أنت + هو..هو + أنتَ..أنتَ + هو

فضلاً عن المتكلم المستتر وراء هذه الضمائر غير المطردة، ومع ذلك فهو تبليغ يشمل ثلاثة خطابات:



والتبليغ الوارد لاحقًا في البيت الخامس والعشرين يُحلّل تحليل الخطابات السابقة؟ سطحيًا وتحتيًا، تشكيلاً وضمائر، وأما ما يليه فيتصدر "إلا" التي فتحت الشهية لأكثر من راوٍ عالم، ولغوي ناقد، ونحوي ضليع، وما كاد واحد من هؤلاء يتفق في تحليله مع نظيره، وكلها آراءٌ ذات وزن لغوي وأدبي لا يسع الواحد منا اليوم في هذا العصر المظلم لغويًا إلا أن يثمّنها، ويقف منها موقف الاحترام والانبهار، ولكن نهجنا المتبع يُشَفّعُ له ألاّ يلتفت كثيرًا،وفي كل مرّة، إلى هذه التحاليل اللغوية للعناصر النحوية، وإلا حِدْنا عن سبيلنا، وانتأينا عن قراءتنا، وكل ما نقول فيها إنها أداة

استثناء مُلغًى، فهي ليست واصفة وإلا كان ما بعدها في موضع غير، وكان ما قبلها مُعربًا إعراب ما بعدها، كقول الشاعر:

وكلّ أخٍ مفارِقُه أخوه لعَمْرُ أبيكَ إلا الفرقدانِ

لأن أصل إلا الاستثناءُ والصفةُ عارضةٌ، في حين أنّ أصلَ غيرٍ صِفةٌ والاستثناءُ عارض، وشتان ما بين الأمرين، كما أنها لا تحتمل أحد الوجوه الخمسة للاستثناء بها بما في ذلك الاستثناء المنقطع الّذي يكون مستثناه من غير جنس المستثنى منه، ولذلك صرّحت في بعض المناسبات الأخرى أن العربية لم تُضبط قواعدُها ضبطًا جرديًا كليًا، ولا تزال أحشاؤها الأصيلة وتواصلاتها الطبيعية القديمة تحوي عناصر لسانية وظيفية لم تُقعَّد بَعْدُ، لأنّ ما قُعِّد لها من قواعد يغنينا عمّا لم يُقعَّد فيها وزيادة.

وتبليغه "إلا لمثلك" لا يشبه بتاتًا تبليغه السابق "إلا أواريّ"، على الرغم من أننا لا نتفق مع من فسّر الرفع فيه على أنه من بعض الدار (يا دارُ مية) استئناسًا بمن رواها مرفوعة بالنداء المفرد، والّذي نراه أن المستثنى هنا لا يكون إلا منصوبًا لأنه استثناء منقطع بوصفه من غير جنس "أحد" المجرورة لفظًا المرفوعة محلاً (مبتدأ مؤخر)، خاصة وأن "إلا" هنا بمعنى لكن، أي لَكِنْ أوَّاريَّ، ولا كتبليغه "إلا سليمان" الّذي لا يشوبه غبار في نصبه على الاستثناء من "أحد" المجرور لفظًا المنصوب محلاً (مفعول به).

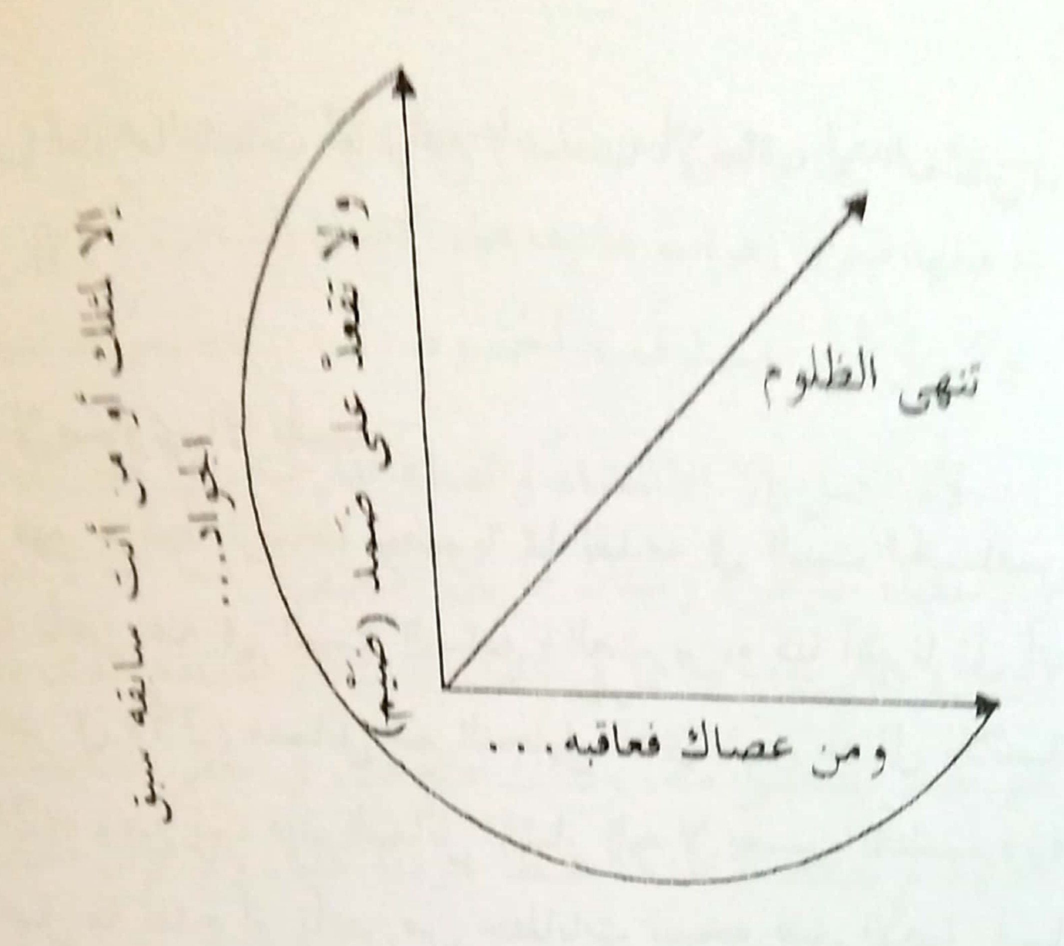
وتخريجًا لهذا التبليغ، فإننا كنا أومأنا بأنه يفيد استثناء مُلْغًى، وهو الاستثناء السادس بـ"إلا"، لدخول عاملين متناقضين في وظيفتهما النحوية

على معمول واحد، أحدهما ناصب أو رافع (حسب الإيجاب أو النفـي). وآخرهما جارّ ليس إلا.

كل خطاب لا يساوي إلا نفسه

أما خطابه، فهو مرتبط ارتباطًا عضويًا بما تقدمه في البيت الخـامس والعشرين، لا بما تأخر عنه في البيت السابع والعشرين،وكنا أشرنا إلى أن تحليل التبليغ الوادر في (25) متماثل مع التحليل الّذي شجرناه إلى ثلاثـة خطابات في (24)، ومن ثمّ، فإن التماثل المشار إليه لا يعـني بالضـرورة نسخة طبق الأصل لما تقدم أو تأخر من خطابات نسخه طبق الأصل لمـا تقدم أو تأخر من خطابات متداخلة، لأننا كنا صرّحنا فيمـا سـلف أن خطابًا لا يحل محل خطاب آخر، ولا ينوب منابه إلا تعسّفًا بإرادة خارجية متأخرة، لأن خطابًا واحدًا لا يُلْفظ إلا خطابًا واحدًا وفي آن، ومثله تبليغه الذي يتقمّصه أو يَلْبسه بعناصره، لكن خطابًا لا يساوي إلا نفسه، ومن ثمّ يجب أن نميّز بين التبليغ اللّساني من جهة وما ينقله ويحمله من جهة أخرى.

ودون الدّوران المُمِل حول شيء بذاته، فإنه يجـوز لنـا أن نشـجّر الخطابات في البيتين (25، 26) على النحو:

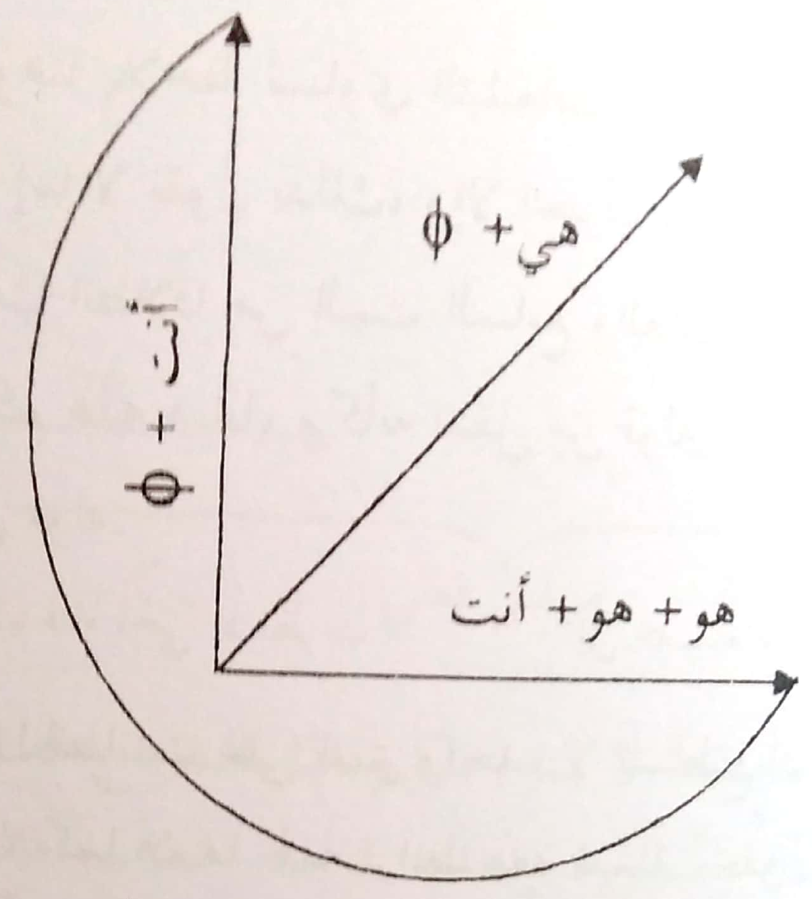


وسبق أن وجدنا في هذه المدونة أربعة خطابات أفقية وعمودية وبينية وهلالية،/ولعبة الضمائر فيها:

هو + هو + أنتَ (لا يُحسب العنصر (هو) إلا مرة واحدة)

هي + ϕ أنت + ϕ هو + أنت هو + ϕ	تداولت الضمائر وتبادلت فيما بينها سبع مرات لتقدم الخطابات الأربعة، والعبرة ليست بكثرة الضمائر أو قلتها، بل بتواترها استعمالاً

وتخطيطها:



هو + أنت ... + هو + ϕ

ونشير إلى أن المجموعة الخالية لا يراد بها الخُلُوُّ دلاليًا، بل يراد بها نهاية التبليغ سانتكسيًّا:

1)- "ومن عصاك فعاقبه" شرط+ جواب.

2)- "تنهى الظلوم" ذات علاقة بما بعدها (معاقبة) لأنها صفة لها.

3)- "ولا تقعد على ضَمَدٍ (ظلم)" جملة منتهية سانتكسيًا، ولا تحتاج إلى توضيح أزيد.

4)- "إلا لمثلك" مستثنى ملغى، أي هذا الثناء والحمد إلا لمثلك أو لمن هو مثيل لك، لكن العطف بعده حشو وإطناب وتشبيه بليغ ومترابط آخره بأوله لأن جواب الشرط بعد "إذا استولى على الأمد (الغاية)" محذوف يدل

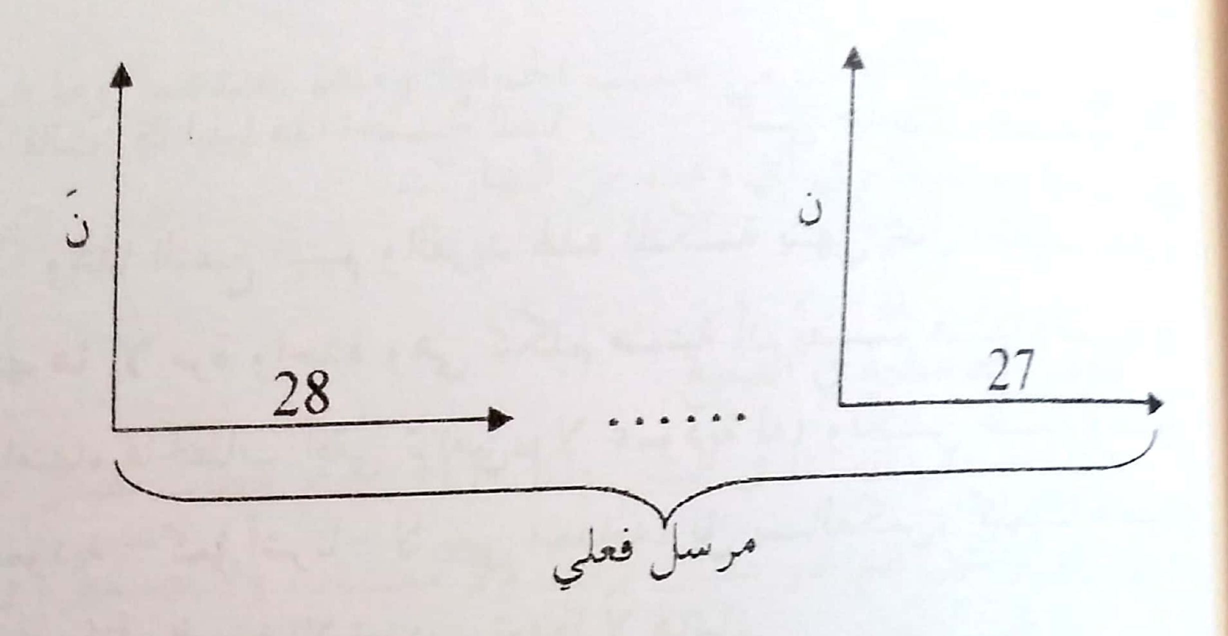
عليه ما قبله، وهنا يلاحظ تَساوي التبليغات الأربعة بخطاباتها، فهل هذه قاعدة مطردة؟ إننا لا نقول بذلك، وإلا اجتزأنا في تحليلنا بأحد الأمرين.

إن المتحدث انطلاقًا من البيت السابع والعشرين يرجو من النعمان التروّي في الحكم عليه بهتانًا، وكأنه انتقل من قوله السابق: "فتلك تبلغني النعمان..." إلى قوله:

واحكم كحكم فتاة الحيّ إذْ نظرتْ ... إلى حمامِ سِراعٍ واردِ الثَّمَدِ

وهنا تسير الخطابات على نسق واحد، لا تستطيع أن تفصل بما ورد في البيت أعلاه، كما أن ما لحقه ترابط معه بجملة "يَحفُّه" كصفة ثالثة للحمام، و"يَحُفُّه جانبا نيقٍ (جبل)" عطف عليه ما بعده "وتُتْبِعُه مثل الزجاجة" وهذه الجملة عملت فيما بعدها "لم تُكْحَلْ من (الرمد)" على أنها في محل نصب حال، وهكذا تفاعلت العناصر اللّسانية فيما بينها متآزرًا لاحِقها مع سابقها تآزرا خطيًا متسلسلاً.

وحتى لا نكرر ما سبق أن ألمعنا إليه بشأن أحادية التزامني وتعدد الزمني، والمرسل الفعلي والمتلقي الافتراضي، فإنه يمكن تمثيل ما يوجد من خطابات ممكنة في البيتين (27 و28) على النحو السابق.



غير أن هذا التخطيط لا يلتزم قلبًا وقالبًا بالنموذج السابق، لأنه على قدر موقف الإرسال وصدوره واتجاهه يتحدد الخطاب، فالمرسل هنا معروف لحماودمًا وتاريخًا، وهو إنسان أمكنه أن يعبّر عن نفسه، ومثله المتلقي المشار به إلى النعمان، لكن وقْفه الخطاب مؤقتا ليسرد على الممدوح قصة تسامَرَ بها العرب أبقى المرسِل الفعليّ، وعمَّم الإرسال على أي متلقٍّ كان تجاوز الممدوح أو متلقيًا معينًا، ومن هنا جاز تشجير الخطاب على النحو الّذي شُجّر به أي:

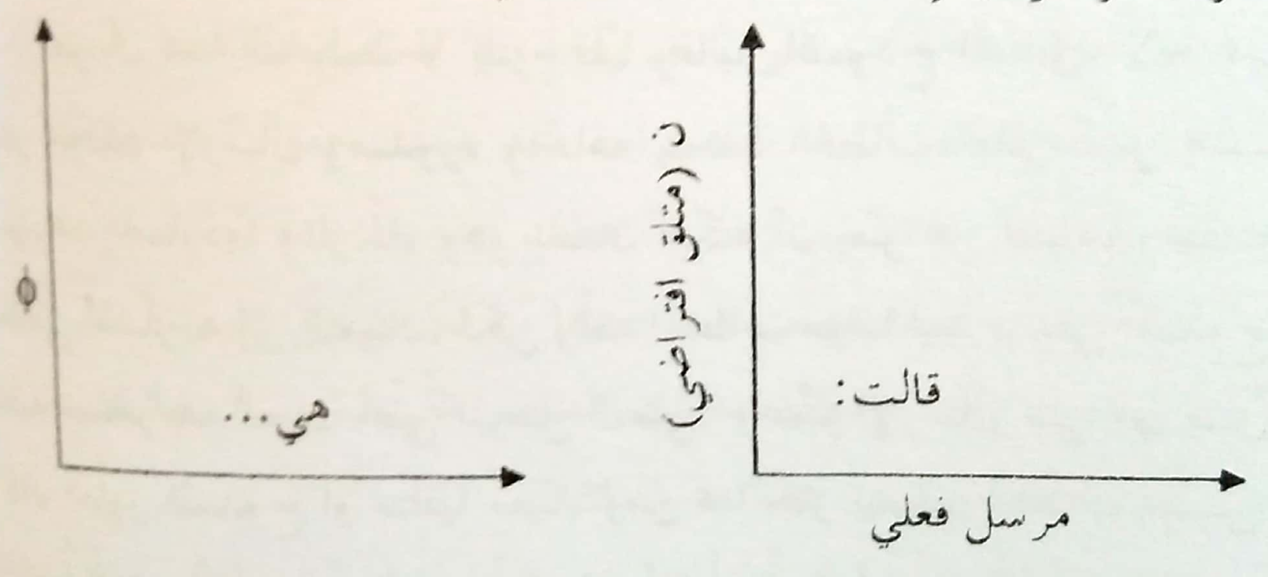
ن (النعمان ← متلقٍّ بعينه) ونَ (متلقٍّ افتراضي).

تبليغ يتيم في النص

ما خرجنا من خطاب تطغى عليه أفقية معلومة وتنعدم فيه عمودية إلا لندخل خطابًا عزيزًا ذا صلة وطيدة بما نظرت أعرابية حمامًا سراعًا فوقها، وهي قاعدة مع صواحب لها، ونتيجة لذلك نطقت:

قالت: فيا ليتما هذا الحمامُ لنا   إلى حمامتنا ونصفُهُ فقد

وبهذا التبليغ اليتيم والفريد لهذه المتكلمة ينتهي مجال الخطاب الّذي لا يظهرها إلا مرة واحدة وهي تتكلم متمنية أن يُضمّ هذا الحمامُ إلى حمامتها، فالخطاب أفقي تزامني،ولا عمودية له، ولكن عدم وجود العمودية -كما أشرنا- لا يعني انعدامه، بل بالعكس، كلما غابت العمودية أو الزمنية إلا تعددت تعددًا لا نهائيا:



أي: مرسل فعل/ ن+ نَ+ نً+ ...

إن الأعرابية -أو بنت الخسّ- تمنّت ما تمنّت، الأمر الذي دفع فضوليين يقتفون آثار الحمام، وهو موزع على ماء يروي به عطشه، وكانت المفاجأة أن حَسَبُوه فوجدوه تسعًا وتسعين حمامة دون نقص ولا زيادة، وهذا الشرح المملّ غير مهمّ هنا، لأن الأهم منه أننا ألفينا أنفسنا ننتقل من تبليغ مباشر انتهى على لسان حال فتاة، لنجد أنفسنا أمام تبليغ

جديد مباشر، لأننا لا نعرف من حسب الحمام؟ وماهو عددهم؟ وما هي طبيعة العملية الحسابية؟ وفي أي وقت من النهار؟...

العناصر التعاضدية في التبليغ

وهكذا نصادف أنفسنا في البيتين (30، و31) أمام خطاب يَصْدر عن مرسِل إزاء مُرْسلين لهم غير معينين بزمان ولا مكان، ولا جنس، ولا سن،... إنه أقرب إلى إخبار أو إعلام منه إلى تبليغ، لأن التبليغ غير مرتبط في كل حال بالعناصر الستة الشائعة:

مرجع أو محال إليه

مرسلة

مرسِل ____________ قناة ____________ مرسَل إليه

(باث، متكلم) (مستقبل)

سَنَن أو قانون أو مواضعة

(قواعد الفك والتشفير)

بمعنى أن متكلما ليس مجبرًا دائمًا لاستعمال اللغة بغرض التبليغ، فهو بحكم إنسانيته يتواصل مع بني جلدته أو مع ناس مفترضين لا يعرفهم ولا يعرفونه، كل ما يُعرف حتى الآن أن كل تبليغ كلامي يستخدم متكلمًا كالشاعر هنا يرسل مرسلة كلامية صوب مخاطب أو مستقبل قد يكون حاضرًا، وقد يكون غائبًا، وقد يكون معلومًا أو مجهولاً مفترضًا، على أن

تكون هذه المرسلة كمدونتنا الشعرية مُجهّزة مَحْبوّة بمرجع محال إليه، وهو موضوع الخطاب، لكن هذه المرسلة تقتضي مُواضعَة أو قانونًا مسبقًا بين الباث والمتلقي حتى ولو كان هذا المتلقي مفترضًا كأنه يتبادل معنا فهم الخطاب، ولكن هذه العناصر الخمسة لا جدوى من ورائها إذا كان التبليغ خاليًا مما يمكن أن يسمى القناة الفيزيائية التي قد تكون صوتًا لهذا الشعر الذي أُلْقِيَ ورُوي شفهيًا، أو كهذه الصفحة التي أخطها الآن، أو كحركة إذا ولجنا عالما سيميوطيقيا لا صلة له بعملنا هذا، والغرض من توظيف هذه القناة إقامة الاتصال، وهذه العناصر الستة متضامنة في عمليـــة التواصـــل الكلامي، غير أن هذا التضامن متفاوت بحيث يمكن لعنصر أو آخر من بين العناصر أن يكون أكثر أهمية، أو على الأقل هذا ما تزعمـــه اللّســـانيات الحديثة.

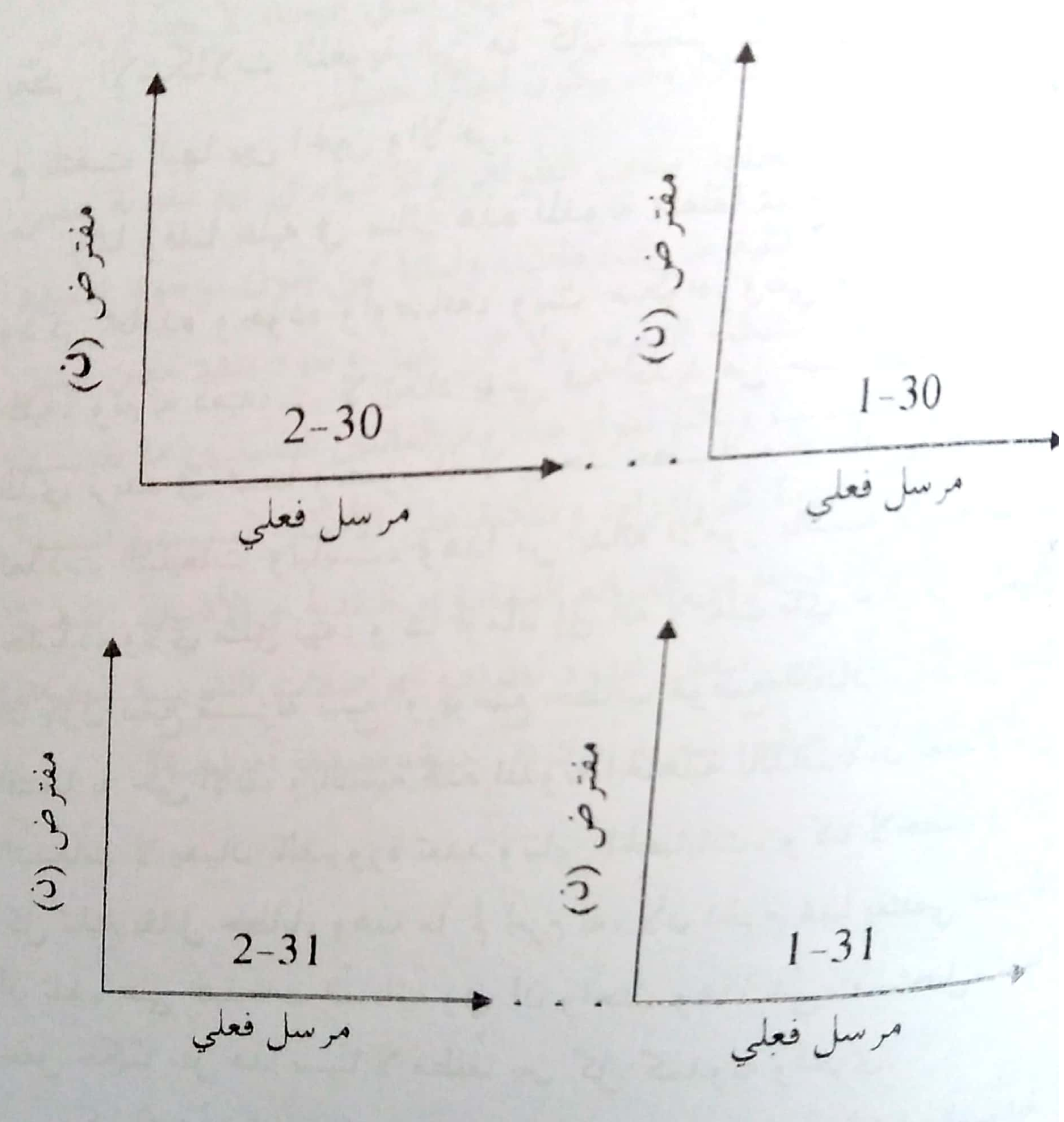
ويمكن إعادة تشكيل التبليغات الواردة في البيتين:

1-30 فحسَّبوه فألفَوْه تسعًا وتسعين ← هم+ هم.

2-30 كما زعمت، لم تَنْقُصْ و لم تَزِد ← هي+ هي+ هي.

1-31 فكمّلتْ مائة فيها حمامتها هي+ ϕ.

2-31 وأسْرَعتْ حِسْبَةً في ذلك العدد ← هي+.ϕ.



خلاصة تحليلية

ودفعًا لكل ملل، فإننا اجتزأنا بهذه الأبيات من دالية النابغة هذه، لأن وقوفنا على سائر تبليغاتها وخطاباتها لا يكاد يختلف عما حُلِّلَ إلا في المضمون، وهدفنا التحليلي هنا لا يهتم بهذا الجانب إلا التفاتًا بغية تقريب بعض المعاني إلى المتلقي العادي أو غير المتعمق في هذا المجال، وبغية إزالـة

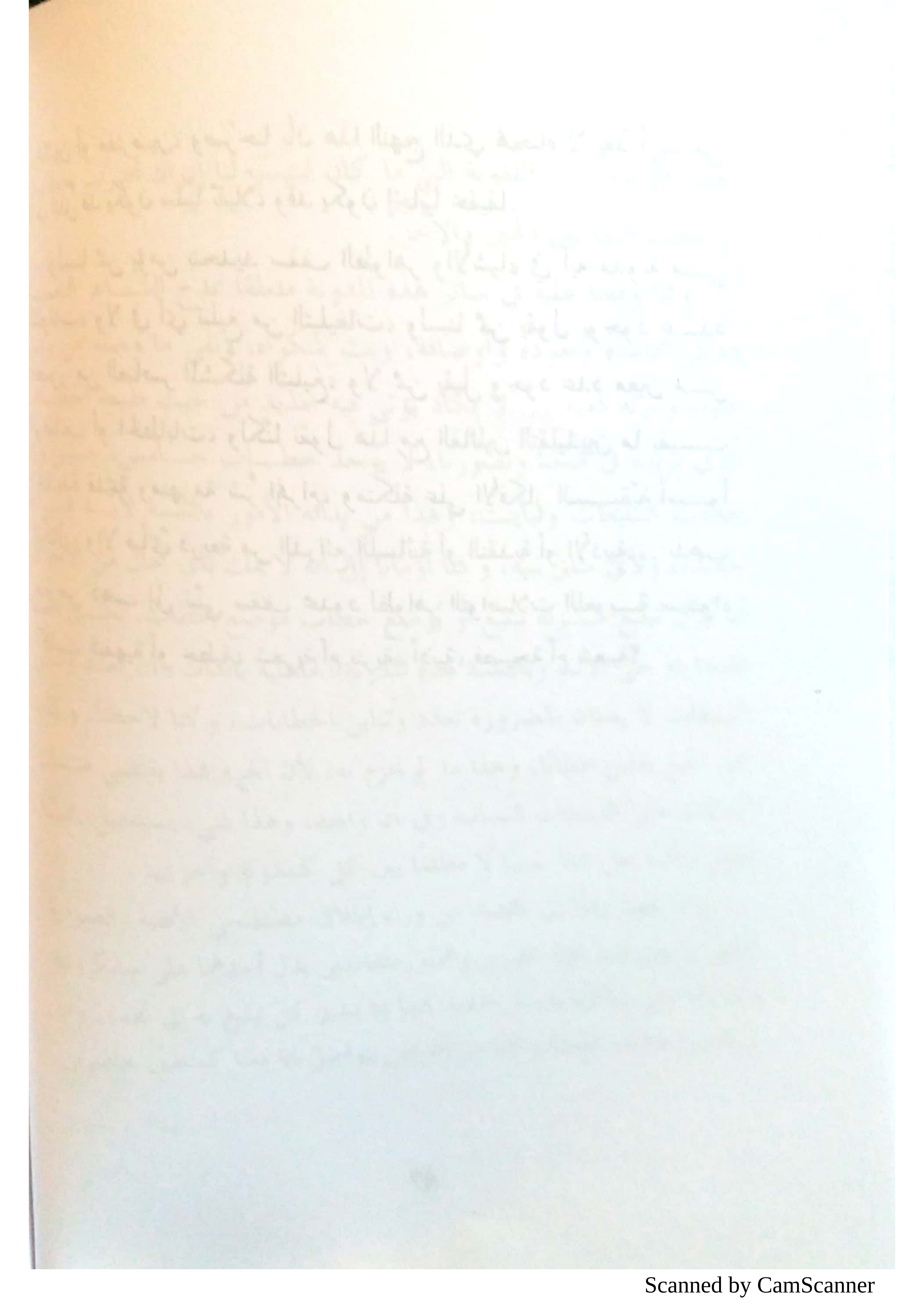
بعض الإشكالات اللّغوية التي ما كان ليتيسّر لنا إدراك أضرُبٍ خطابية لو لم نلتفت إليها بين الحين والأخر.

ومما وقفنا عليه في سائر هذه المدونة متعلقًا بمدح الشاعر النعمان وذكر محامده وجوده وأوصافه، وبث شكواه، ونفي ما وصله من وشاية عليه، وتبرئه ذمته،... لا يكاد يؤتى فيه بجديد من حيث طبيعة الخطاب الّذي نريده في بحثنا وتصورنا، لا يوجد خطاب خامس، حتى وإن تعدّدت التبليغات وتباينت، وهذا من بدائه الأمور بالنسبة لأية قراءة جديدة، ولأي متلقّ نبيه، وكنا أومأنا إلى أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يُنزّل تبليغ منزلة تبليغ أو يُوضَع خطاب موضع خطاب، لكن ما اقتنعنا به حتى الآن، وبالنسبة لهذه المدونة الجاهلية بالذات، أن تعدد وتباين التبليغات لا يعنيان بالضرورة تعدد وتباين الخطابات، وكنا لاحظنا، وكأن كل تبليغ يقابل خطابًا، وهذا ما لم نجزم به، لأن الجزم هذا يقتضي منك أن تقف على التبليغات اللّسانية وفي آن واحد، وهذا شيء مستحيل، مما يجعل حكمًا مثل هذا نسبيًا لا مطلقًا بين كل كمدونة وأخرى.

وكنا نبّهنا أيضًا إلى القصد من وراء إطلاق مصطلحي الأفقية والعمودية اللّذين لا نعني بهما مجرد محورين وهميّين متعامدين يدل أحدهما على سانكرونية وآخرهما على دياكرونية، بل نقصد بهما ما يشير كل تبليغ به إلى نفسه، وما يدرك من خلاله سطحيًا وتحتيًا من أغراض يتواصل بها معنا كمتلقّين حاضرين

أو غائبين أو مفترضين، وصرّحنا بأن هذا النهج الذي نهجناه لا يعدّ أزيد من رُؤًى لتلقٍّ قد يكون سلبيًا ثقيلاً، وقد يكون إيجابيًا خفيفًا.

ولسنا ممن يؤمن بتحديد سقف الظواهر والأشياء في أية مدونة من المدونات، ولا في أي تبليغ من التبليغات، ولسنا ممن يقول بوجود عدد محصور من العناصر المشكّلة التبليغ، ولا ممن يقبل وجود عدد معين من الوظائف أو الخطابات، ولكنّا نقول هذا مع القائلين التقليديين ما بقيت الجديدة قديمة ومنهزمة شرَّ انهزام، ومتكلة على الأفكار السبقيّة أسوأ اتكال، وإلا فبأيّ ذريعة من الذرائع اللسانية أو النقدية أو الأدبية... نذهب مع من ذهب إلى تبنّي سقف محدود لظواهر التواصلات اللغوية سواء كانت شفهية أو خطية، شعرية أم نثرية، أدبية، فصيحة أم شعبية؟



الباب الثاني:

التبليغ الوظيفي للخطاب

الفصـل الأول : النظريات اللّسانية للوظيفة والتبليغ

الفصـل الثـاني : التحليل الوظيفي للمدونة

الفصـل الثالث : الآلة الوظيفية في اللغـة

الفصل الأول: النظريات اللسانية للوظيفة والتبليغ

التبليغ: تعريف

لا تتردد بعض الموسوعات اللّسانية الحديثة في تعريف التواصل اللغوي بأنه تبادل كلامي من فاعل متكلم ينتج ملفوظًا موجَّهًا نحو فاعل متكلم آخر، يرغب فيه مُكَالِمٌ INTERLOCUTEUR أو مُحادِث سماعًا له أو إجابة عليه بشكل صريحٍ أو ضمني تبعًا لنمط الملفوظ المراد تبليغه إلى الفاعل المتكل Le sujet parlant الآخر، وببيان بسيط أن التواصل اللّغوي عملية فعلية حسية بين شخصين فصاعدًا حضورًا إذا كان التواصل شفهيًا، وغيابًا إذا كان هذا التواصل خطيًا، وعلى مستوى علم النفس اللّغوي، فإن سيرورة التواصل اللّغوي ترتبط دلالاتها بالأصوات المتواضع عليها والمعتاد سماعُها دون زيادة أو نقصان أو تغيير بين المتكلم والمستمع.

نظرية التبليغ وڤيرو

وتعرّف نظرية التبليغ أن التبليغ نقْل أو إرسالُ معلومة بين مُصْدِرٍ يُصدرها أو باثّ يرسلها ومستقبل بفضل مُرسَلة منتشرة عبْر قناة، وتعطى لسير هذه العملية الاتصالية مثلاً بالتبليغ الهاتفي، حيث يقوم الباثّ بإصدار

مرسلة (مكالمة) تصحبها اندفاعات كهربائية أو إلكترونية بوساطة خط هاتفي أو قمر صناعي إلى شخص مستقبل، وأشار قيرو GUIRAUD منذ أزيد من نصف قرن إلى أنه تحليل مثل هذا لا توجد أية لحظة تطرح حول معنى المرسلة، لأنه في التبليغ، ليس هناك إلا تحويل لشكل مسجل في ماهية أو فحوى خطاب، كما هو الشأن مثلاً في الأشكال البصرية بخصوص مرسلة خطية، ولكن لا يُنْقل أو يُحوَّل إطلاقاً شيء اسْمُه معنى، فالخط الهاتفي ينقل طاقة، والرسالة تنقل أشكالاً خطية،... أما المعنى فيعالجه الإنسان المستقبل في مدى نهاية ما يسمح به التواضع والاصطلاح اللّذان يُسندان لكل شكل مُعَادِلاً دلاليّاً[1].

التبليغ عملية آلية

وبناء على ما جاء في نص قيرو السابق، فإن التبليغ لا يتوطد في مستواه الدلالي إلا في نطاق ما يمتلك كل من الباث والمستقبِل من رموزٍ مشتركة من أجل ترميز وتفكيك المرسلة، وهنا يتحول الباث مستقبلاً، والمستقبل باثًا بصورة ضمنية أو آلية، أي يعمل الباث في حسبانه أنه مُرْسَل إليه لا مُرسِل، إذا أراد من مستقبل مرسلته أن يبادله الرموز الدلالية نفسها، وأن يكون لعمليته التبليغية فائدة "لنفترض أنه كلما رغب المتكلم

---

1)- Dictionnaire de didactique des langues, P : 103.

في إشراك السامعين في فكرة من أفكاره أو رأي من آرائـــه، تـــرد في آن واحد إلى ذهن السامعين الفكرةُ نفسُها أو الرأي نفسه مميّزة بصورة معقولة لتشير إلى من أبداها، حين تكون الإشارة إلى ذلك مفيدة، ولنفترض أنــه مهما تكن آراء المتكلم وأفكاره، فحين لا يريد إشراك الآخرين فيهـــا، لا يصل منها إلى الآخرين أية فكرة أو رأي يماثلها"[1].

ولعلّ أبرز نقطة تقودنا إلى إزالة اللّبس عن ظاهرة التبليـــغ أن نقـــر بوجود ظواهر متناسبة تصحب صدور أو حدوث التواصل اللّغوي بـــين مرسل ومرسل إليه، هذه الظواهر هي الرموز المشتركة بينهما، والتي عادة ما ندعوها عناصر لسانية كإطلاق عام، وكان جيرولد كاتز ممـــن انتقـــد المذهب السلوكي المُغيِّب من نظريته البعد التناسبي للأفكار والآراء المتواضع عليها سلفًا بين الباث والمتلقي، وليس معنى هذا أننا نقول بتواضع الاثنين على الأفكار المتبادلة بينهما سلفًا خاصة في اللغة غير المكتسبة طبيعيًا.

التبليغ وجيرولد كاتز

وأهمّ ما جاء لدى جيرولد كاتز أن "متكلمي اللّغة يتقنون استعمالها لأنهم يعرفون قواعدها، وبما أن التواصل اللّغوي مسار يكون المعنى الّـــذي يقرن به المتكلم الأصوات هو نفس المعنى الّذي يقرن به المستمع الأصوات

---

1)- الألسنية (علم اللغة الحديث)، ص: 80.

نفسها، فقد يكون من الضروري أن نستخلص من ذلك أن متكلمي لغة طبيعية معينة يتواصلون فيما بينهم في لغتهم، لأن كلاًّ منهم يمتلك، بصورة أساسية، تنظيم القواعد نفسه، ويتمّ التواصل، لأن المتكلم يرسل مرسلة عبر استعمال نفس القواعد اللغوية التي يستعملها المستمع إليه لكي يلتقطها"[1].

وبعد ما ينحي جيرولد كاتز باللائمة على السلوكيين الذين يعتبرون المتكلم شبيهًا بإنسان آلي على أن التواصل اللغوي لديهم يجري وفق مظاهر طرفية يمكن ملاحظتها علانية كأصوات الكلام، والذبـذبات الفيزيائية للمثيرات المستعملة، والسلوكات غير الكلامية؛ فإنه يـرى أن عملية التواصل اللّغوي تحصل على الشكل: "يختار المتلكم، لأسباب ليست ملائمة من الناحية اللغوية، مرسلة يريد إرسالها إلى الّذين يستمعون إليه: فكرة يريد أن يلتقطوها، أمر يريد أن يعطيه إليهم أو سؤال يريد أن يطرحه عليهم، ويتم إرسال هذه المرسلة على شكل تمثيل صوتيَ للكلام بوساطة تنظيم قواعد لغوية يمتلكه المتكلم،... يُلْتقط هذا التمثيل بوساطة التنظيم المعادل للقواعد اللغوية والعائد إلى المستمع عبر تمثيل للمرسلة نفسها التي اختار المتكلم أن يرسلها منذ البداية"[2].

1)- السابق، ص: 82.
2)- نفسه، ص: 82-83.

التبليغ الوظيفي عند جاكبسون

أما رومان جاكبسون فصرّح بإسهاب أن اللّغة يجب أن تُدرس في كلّ تنوّع من تنوعات وظائفها، "وقبل التعرض على الوظيفة الشعرية، فعلينا أن نحدد ماهية مكانها من بين الوظائف الأخرى للغة، ولعطاء فكرة عن هذه الوظائف، فإعطاء لمحة موجزة مُنْصبَّة حول العوامل المكوِّنة لكل مسار لغوي إزاء كل تواصل لغوي أمر ضروري، فالمرسل يرسل مرسلة لمرسل إليه، وحتى تكون هذه المرسلة عملية، فإن المرسلة تقتضي قبل أي شيء سياقًا تحيل عليه (والمسمَّى أيضًا تسمية لا تخلو من غموض "المرجع")، وهذا السياق قابل لان يُفْهم من قبل المرسل إليه، سواء كان كلاميًا أو مُحْتَمِلاً لأن يكون كلامًا، ثم تأتي المرسلة التي تتطلب سَنَنًا مشتركًا كليًا أو أقلّهُ جزئيا بين المرسل والمرسل إليه (أو بعبارات أخرى بين ترميز المرسلة وتفكيكها)، على أن تتطلب المرسلة أخيراً اتصالاً وقناة فيزيائية وارتباطًا سيكولوجيًا بين المرسل والمرسل إليه، ويسمح هذا الاتصال بإقامة واستمرار التبليغ، هذه العوامل المختلفة للتبليغ الكلامي، والتي لا تقبل التجزؤ يمكن بيانها بالمخطط التالي:

مرسِل إليه	سياق Contexte	مرسِل
Destinataire	مرسلة (Message)	Destinateur
	اتصال Contacte	
	سنن Code	

كل عامل بين هذه العوامل الستة تعطي ميلادًا لوظيفة لغوية مختلفة. ولْنَقُلْ مباشرة إذا كنا نميّز هكذا المظاهر الستة الأساس في اللغة، فإنه يكون من الصّعب إيجاد مرسلات تؤدي وظيفة واحدة وحسب، بسبب أن تنوع المرسلات لا يكمن في احتكار وظيفة أو أخرى، بل في تبايناتها التدرجية فيما بينها، ذلك أن البنية الكلامية للمرسلة تخضع قبل كل شيء إلى الوظيفة المهيمنة، بل حتى لو كان تركيز الإحالة مصوّبًا نحو السياق - والمقول له الوظيفة "التعيينية"، "الإدراكية"، المرجعية- هو المهمة السائدة في عدة مرسلات، فإنه ينبغي على اللّساني اليقظ أن يأخذ بعين الاعتبار الاشتراك الثانوي لوظائف أخرى"[1].

ويتابع جاكبسون عرضه للوظائف، فيبرز أنّ الوظيفة المسماة "تعبيرية" أو انفعالية تتمركز حول المرسل، هدفها التعبير المباشر عن موقف الفرد بخصوص ما يتكلم عنه، وتنزع هذه الوظيفة إلى إعطاء الانطباع بوجود انفعال حقيقي أو مختْلق، ومن أجل ذلك نجد جاكبسون يفضّل تسميتها بالوظيفة الانفعالية، وفي التسمية التي أطلقها عليها مارتي MARTY قبله بزمن بعيد، في حين أنه لا يستأنس لمصلح "الوظيفة العاطفية" ذاهبًا إلى أن الناحية الانفعالية الصرف في اللّغة تتمثل في حروف التعجب التي تبتعد عن النهوج اللغوية المرجعية في الآن ذاته بوساطة صورها أو شكلها الصوتي

1)- Essais de linguistique générale, P 213-214.

حيث نجد فيها تتابعات صوتية خاصة أو حتى أصواتًا غير مألوفة في بقية المواضع، بوساطة دورها السانتكسي، لأن حرف التعجّب ليس عنصرًا من عناصر جملة بل معادلاً لجملة تامة.

ويردف جاكبسون قائلا: "إن التوجه نحو المرسل إليه في الوظيفة الندائية يجد تعبيره النحوي الأكثر صفاء في النداء والأمر اللّذين يتعدان من وجهة نظر سانتكسية ومورفولوجية وحتى فونولوجية أيضًا غالبًا عن الفئات الأخرى الاسمية والفعلية، فالجملة الطلبية تختلف عن الجمل الإخبارية اختلافًا أساسيًا، فهذه الأخيرة بالإمكان إخضاعها لاختبار الصوابية خلافًا للجمل الطلبية التي لا يمكن إخضاعها لذلك"(1) مضيفًا أن النموذج التقليدي للّغة كما وُضّحَ من قبل "بوهلر BÜHLER" بوجه خاص لا يتعدى هذه الوظائف الثلاث: الانفعالية، والندائية، والمرجعية، والقمم والذّرى الثلاث لهذا النموذج المثلثي الأبعاد تتطابق مع الشخص الأول أي المرسِل والمخاطب أي المرسل إليه، والشخص الثالث أي الغائب أو أي شيء نتكلم عنه، وانطلاقًا من هذه النموذج المثلثي، بوسعنا أن نستنتج بسهولة بعض الوظائف اللغوية الإضافية.

وبناء على ما أشار إليه جاكبسون، فإن الوظيفة المسماة سحرية أو تعزيمية INCANTATOIRE يمكن أن تُفهَم كتحويل لشخص ثالث

---

(1)- نفسه، ص: 216.

غائب أو شيء غير متحرّك إلى مستقبل لمرسلة ندائية، وضرب لمقولته أمثلة من الجمل[1]:

– عسى هذه الشُعَيْرَةُ أن تجفَّ أو تيبّس، تفو، تفو، تفو، فهذه الجملة تمثل عبارة سحرية ليتونية.

– يا مَاءُ مَلِكَ الأنهار، أيها الفجر!، اذهب بالحزن إلى أبعد ما وراء البحر الأزرق، عسى ألا يعود الحزن ليثقل القلب المهموم لخادم الله، عسى أن يذهب الحزن ويغرق في البعد.

– أيتها الشمس توقفي على جابوون GABAÔN، وأنت أيها القمر توقف على وادي ايالون AYYALON ! والشمس توقفت، والقمر توقف ثابتًا "وقد اعترفنا مع ذلك بوجود ثلاثة عوامل أخرى مكوِّنة للتبليغ الكلامي بحيث تقابل هذه العوامل الثلاثة ثلاث وظائف لسانية"[2].

ومما ورد في الموضوع ذاته لدى جاكبسون تصريحه بأنه توجد مرسلات تستعمل أساسًا لإقامة التبليغ أو تمديده أو قطعه، ويمكن لنا التحقق فيما إذا كان التيار يعمل: "ألو، هل تسمعني؟"، أو لفتُ الانتباه للمخاطَبِ أو لتيقن من أن التبليغ لا يَفْتُرُ: "قل: هل تسمعني؟"، أو بأسلوب شكسبيري: "أَعِرْني سمعك"، وهذه التبليغات تشير كلها إلى ما أسماه مالينوفسكي وظيفة إقامة الاتصال، أي La Fonction

---

1)- يراجع المرجع السابق، ص: 216-217.

2)- نفسه، ص: 217.

Phatique، وتعدّ هذه الوظيفة أول وظيفة يكتسبها الأطفال، لأن نزعة التبليغ عند الأطفال تسبق الكفاءة لإرسال أو استقبال مرسلات حاملة معلومات، وهذه النزعة التي أشار إليها جاكبسون نزعة مجبول عليها الطفل بالفطرة، ومن ثم، فإنها نزعة بريئة لا قصدية.

ويضيف هذا اللّساني أن ثمت تمييزًا وُضِعَ في علم المنطق الحديث بين مستويين في اللغة، فهناك اللغة-الموضوع، الناطقة أو المتكلمة بالأشياء، وهناك اللغة الواصفة أو ما فوق اللغة Métalangage الّذي يتناول اللغة ذاتها، غير أن هذه الأخيرة ليست فقط أداة علمية ضرورية يستعملها المناطقة واللسانيون، بل تؤدي دورًا في غاية الأهمية في لغتنا كل يوم، فنحن نمارس اللغة الواصفة أو ما فوق اللغة من دون أن نلحظ هذه الخاصية الحية في نشاطنا التواصلي الطبيعي، وكلما حاول المرسل و/ أو المرسل إليه، أن يقرّ حكما ضروريا للتحقق من الاستعمال الجيد للسّنن، فإن الخطاب يتمركز حول السنن ويودّي وظيفة ما فوق اللغة أو وظيفة معجمية Fonction de glose مستشهدًا بالجمل والتراكيب[1]:

- لا أتابعك، ماذا تريد أن تقول؟

الأمر الّذي جعل المستمع يسأل في أسلوب راق: "ماذا يعني ذلك؟"، بينما المتكلم يختار مسبقًا ويسأل: "هل تفهم ما الّذي أقوله لك؟".

1)- المرجع السابق، ص: 218.

الوظيفة الشعرية (المُرْسَلة)

وبعد أن ينتهي الرجل من إلقاء نظرة عامة خصَّتْ كل العوامل المندرجة في إطار التبليغ اللّساني، يلتفت إلى المرسلة نفسها ذاهبا إلى أن المرسلة كما هي، على أن يُنوِّهَ بالمرسلة بالأصالة عن نفسها، هو ما يطبع ويميز الوظيفة الشعرية للغة، وهذه الوظيفة لا يمكن الاستفادة من دراستها إذا غَرَبَ عن بالنا المشاكل العامة للغة،ومن جهة أخرى، فإن تحليلاً مدققاً يشترط أن تأخذ جديًا وبعين الاعتبار الوظيفة الشعرية، وكل محاولة لتقليص نفوذ الوظيفة الشعرية في الشعر أو حصر الشعر في الوظيفة الشعرية لا تقودنا إلا لتبسيط مفرط وخادع، ذلك أن الوظيفة الشعرية ليست الوظيفة الوحيدة لفن الكلام، فهي الوظيفة السائدة والمحدّدة فقط حتى وإن كانت لا تقوم في النشاطات الكلامية الأخرى إلا بدور مُساعدةٍ واستطراد، وهذه الوظيفة التي توضح الجانب الممكن لَمْسُهُ في العلامات تُعَمِّق على هذا النحو التفرُّع الثنائي DICHOTOMIE الأساسي أو الأصلي للعلامات والأشياء، فاللّسانيات وهي تعالج الوظيفة الشعرية لا تقتصر على الحقل الشعري، ويرى أن دراسة اللّسانيات للوظيفة الشعرية "يجب أن تتجاوز حدود الشعر، ومن جهة أخرى، فإن التحليل اللساني للشعر لا يمكن أن يقتصر على الوظيفة الشعرية، فخصوصيات الأجناس الشعرية المتنوعة يدرج مشارك الوظائف الكلامية الأخرى ذات النظام التدرجي المتغير جنبًا إلى جنب مع الوظيفة الشعرية السائدة، فالشعر

الحماسي متمحور على الغائب يظهر إسهام الوظيفة المرجعية، والشعر الغنائي الموجّه نحو المتكلم مرتبط ارتباطًا حميميًا بالوظيفة الانفعالية، في حين أن الشعر الموجه للمخاطب متصف بالوظيفة الندائية، ومطبوع بطابع الالتماس أو الإرشاد تبعًا لكون المتكلم تابعًا للمخاطب أو هذا الأخير تابعًا للمتكلم"[1].

وبعد أن يوضح جاكبسون ما أسماه الوظائف الست للتبليغ التي يعتبرها وظائف جوهرية، ينبري إلى تكميل مخططه السابق الخاص بعناصر التبليغ بمخطط للوظائف المقابلة لها:

مرجعية Référentielle

انفعالية Emotive — شعرية — ندائية Contetive

إقامة الاتصال Phatique

ما فوق اللّغة

Métalinguistique

علما بأنّ هذه الوظائف الست قد تضاف إليها وظائف أخرى، وقد تسمى بمصطلحات تخالف المصطلحات المسماة بها أعلاه، ولكنه لا يُخفي أن يتساءل: "بحسب أي معيار لساني يُعرف تجريبيًا الوظيفة الشعرية؟

1)- المرجع نفسه، ص: 219.

وبوجه أخص، ماهو العنصر الّذي يكون حضوره ضروريًا في كل عمل شعري؟ وللإجابة على هذا السؤال، ينبغي علينا أن نتذكر ترتيب النموذجين الأساسين المستعملين في السلوك الكلامي، ليكن "ابن" موضوع المرسلة، فإن المتكلم يختار بين سلسلة من الأسماء الموجودة والمتشابهة إلى حد ما مثل: ولد، صبي، طفل، فهي كلها متعادلة إلى حد ما في عدد من وجهات نظر، ولشرح هذه الكلمة يعمد المتكلم إلى اختيار أحد الأفعال ذات الملامح المشتركة دلاليًا: ينام، يرقد، يستريح، ينعس، فالكلمتان المختارتان تنتظم في السلسلة الكلامية، فالانتقاء يتم على أساس المعادلة والمشاهة والمغايرة والترادف والتضاد، في حين أن التوافق والتركيب للتتابع يقوم على المجاورة"[1]، مردفًا قوله الشهير حول الوظيفة الشعرية: "تُلقي الوظيفة الشعرية بظل مبدأ معادلة محور الانتقاء على محور التركيب"[2]، مبرزًا أن المعادلة هذه تُرقّى إلى صف النسق أو الأسلوب المكوّن للتتابع ضاربًا المثل بالشعر بحيث كلّ مقطعٍ موضوعٍ في علاقة تَعادُلٌ مع كل المقاطع الأخرى للتّتابع ذاته، أي كل نبرة موسيقية أو صوتية لكلمة مفترضة فيها أنها مساوية لكل نبر آخر من الكلمة، والشيء نفسه أن غير المنبور يساوي غير المنبور، والطويل عروضيًا Prosodique يساوي طويلاً، والقصير يساوي قصيراً، وحدود الكلمة يساوي حدودها، وغياب

---

1)- المرجع نفسه، ص: 220.

2)- نفسه، ص: 220.

الحدود يساوي غياب الحدود، والوقفة السانتكسية تساوي الوقفة السانتكسية، وغياب الوقفة يساوي غياها.

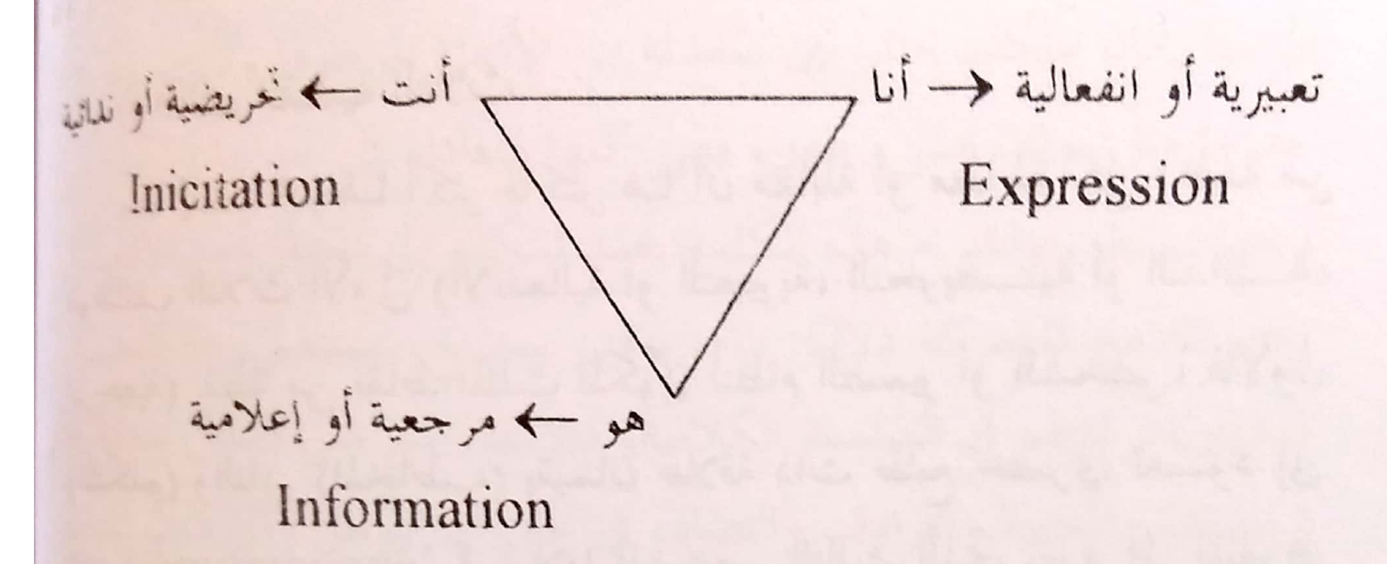
الوظائف القطبية الثلاث

وما يلفت انتباهنا أكثر فأكثر هنا أن مقابلة أو مطابقة كل وظيفة من الوظائف الثلاث الأولى (الانفعالية أو التعبيرية، التحريضية أو الندائية، المرجعية) نقطة من نقاط المثلث المكوِّن لنظام الضمير أو الشخص، فالأول (المتكلم) والثّاني (المخاطب) يقيمان علاقة ذات طابع حصري تعود إلى التلفظ L'énonciation خلافا للشخص الثالث الّذي يعود إلى الملفوظ L'énoncé بينما الشخص الثالث أو الغائب ممكن وَسْمُه في السياق الكلامي، أما مرجع المتكلم أو ضمير الشخص الأول (أنا) وكذا مرجع المخاطب أو ضمير الشخص الثاني (أنت)، فلا يمكن تعيينه أو وسْمه إلا من خلال مقام الخطاب، لأن أنا وأنت لا خصوصية ولا تفرُّد لهما لامتلاك معنى آخر إلا عبر "الشخص الّذي يتكلّم" هنا، الآن، و"الشخص الّذي نتكلم معه"، وإذا صح القول، فإنهما "كلمتان فارغتان" يتكفل بملء فراغهما مقام الخطاب، ومن ثمّ، فإن أنا وأنت يتبادلان في الحوار، ولذا يقال لهما واصِلاَ الخطاب Embrayeurs du discours[1].

---

1)- يراجع: Pour comprendre la linguistique, P : 20-21.

إن المثلث المشكل من نظام الشخص يطابق الوظائف الثلاث الأساس وفق الشكل أدناه:



وهذه الوظائف الأقطاب: تعبيرية، تحريضية، مرجعية، توجد في ثلاثة أنماط من الشعر:

1)- الشعر الغنائي حيث الشاعر يطلق العنان لمشاعره.

2)- الشعر الرثائي المغمور بالحث على التوبة.

3)- الشعر الملحمي الّذي يسرد تفاصيل الأعمال الباهرة لبطل.

السرد والضمائر

والشيء نفسه بالنسبة للعمل الأدبي بشكل عام، طالما أن الراوي أو السارد يمكنه في رواية تُحكى وتُسْرَد بضمير المتكلم أو يتورط ويتوجه مباشرة

بسرده الروائي إلى المتلقين أو إلى متلقٍّ مفضَّل "أوامر لزوجتي حول إدارة منزلنا وزواجنا"[1]، فالسرد المروي بضمير الشخص الأول ليس موجَّهًا لمتلقين عامّين، إلا من باب الفضول والاستمتاع النظير الذي قد يتمنّى حُصُوله أحَدُ لِنفسه، لأنه موجّه إلى متلقٍّ مفضل، الزوج المستقبليّة، ولربما بقي السارد خارجًا كليًا، كأن ما يجري أمام بصره لا يعنيه من قريب ولا من بعيد، ويصدق هذا الحياد على التحقيقات الوصفية والحكي غير المتحيز.

وهناك أسلوب أو نهج آخر قد يتّبعه السارد ليتوجه بالحكْي إلى نفسه ليخلق منها ساردًا مُضاعفًا، ولطال أقدم على هذا روائيون كبار، وأهمية تناوب المتكلم (أنا) والمخاطب (أنت) والغائب (هو) تكمن في السماح للساردة البطلة تارة للاشتراك في الحكي، ومرة في الابتعاد ليعقبها سارد آخر، وطورًا لأن تستريح كشيء ملاحظٍ من الخارج لا كراهية ولا نفورًا، ولكن ربما كشعور السارد بالاغتراب أو الإحساس بنوع من الاستلاب الجزئي الّذي تقمصه سارد في صورة ثانوي، وهو قوي، أو شعورها بالملل أو أشياء من ذلك، فتتحول في لحظة من اللحظات غير المتوقعة من أي متلقٍّ بمن في ذلك المتلقي الأول المفترض فيه أنه عالم بكل شيء، إلى أن تعامل نفسها كشيء أصبح شكلاً وأمسى شكلاً آخر، مما يسمع لها

1)- السابق، ص: 23.

بمراجعة سيرورتها والحيطة مستقبلاً إذا ما أرادت هذه البطلة ألا تفقد عذريتها البطولية، وألاّ تصبح محل مطامع ومطامح العبيد.

تركيب الوظائف الست

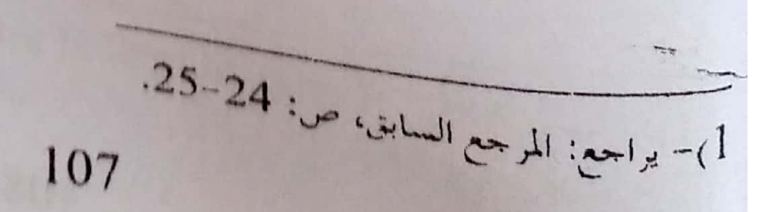
أيا كان الأمر، فإن الوظائف اللّغوية المختلفة تفضل الأساليب أو الأنهج النحوية والأسلوبية المختلفة، وهذا أمر بديهي لا يحتاج إلى جدل، وإلا تناسخت الوظائف بما في ذلك الوظائف الست المعتبرة أساسًا في عملية التبليغ، بل كل وظيفة وما يناسبها من أنهج وطرائق لغوية تتكيف بتكيفها، ولا تتميز الواحدة منها عن الأخرى إلا بنسجها اللغوي المتميز تميز القصد وطبيعة التبليغ والخطاب.

من ذلك أن الوظيفة التعبيرية التي تشكّل النقطة الأولى من مثلث التبليغ (أنا) تعتمد اعتمادًا واسعًا على أدوات التعجب، والمحاكاة الصوتية (كلمة يحكي صوتها صوت الشيء المراد وصفه)، والشتائم Les Jurans والنداءات والهتافات، فضلاً عن عوامل أخرى إضافية تتعلق عادة بخصائص اللغة الطبيعية الموروثة من جهة، وبعادات تكلمات أصحابها من جهة أخرى:

1- زعم الفَرزدقُ أن سيقتلَ مِربَعًا ... أبْشِرْ بطَولِ سلامةٍ يا مِربَعُ!
2- طالَ الثَّواءُ على رسومِ ديارٍ ... قَفْرٌ أُسائِلُها، وما استِخْباري!
3- أتوعِدُ عبدًا لم يَخُنْك أمانةً ... وتترك عبدًا ظالمًا وهو ضالِعٌ؟
4- حملتَ عليَّ ذَنْبَهُ وتَركْتَهُ ... كذي العُرِّ يُكْوَى غيْرُه وهو راتِعُ!

علمًا بأننا لا نعرف تمامًا كيف كان متكلمو العصر القديم ينطقــون وينْبرون إذا ما أعوزتنا الأدوات المباشرة للدلالة على ذلك، لأن النبر يقوم بدور مؤثّر للتعبير عن التأثرات الأولى، والفرح،والغضب، والمفاجــآت، والمعاناة، والتحمّس،... علاوة على ملامح وسمات غير لسانية مثل التعبير الإيمائي، وانكماش الجبهة، وتغير لون الوجه، وحركات تصحب التبليــغ الكلامي،...

على حين أن الوظيفة المسماة تحريضــية يتناســب معهــا أســاليب الاستجواب والأمر والنداء، وقسم كبير من هذه الأساليب مقنّن ومُعَقْلَن اجتماعيًا على مستوى لغة التبليغ، ولذا كانت هذه الأشكال اللغوية صالحة لاصطناع العلاقة بين المتكلم والمخاطب أو بين المرسِل والمرسل إليه، وهي من هذه الناحية تؤكّد العلاقــات الخارجيــة للملفــوظ أي العلاقــات التداولية،... وهذه الوظيفة تعتمد على استحضار فئة خاصة جــدا مــن الأفعال المسماة الأفعال التحقيقيــة Verbes Performatifs أي الــتي يتحقق فعلها لدى قولها، وهذه الأفعال تستمد معناها من التصرف المُمَارس من قبل المتكلم على المخاطب إنه التصرف أو التأثير الممارس الّذي يُبــرّر، وليس السنن المتبادل[1].


1)- يراجع: المرجع السابق، ص: 24-25.

أما الوظيفة المرجعية، فيمكن اعتبارها أن تنمَّ حصريًا عن كل ماله صلة بالملفوظات ذات القيمة الاستعمالية الصرف: "منعرج خطير!"، "الطريق مقطوع"، "الأولوية لهذه الحافلة"، "اللّي بْغى الدّنْيا يْبكّرْ، واللّي بْغَى الآخرة يْبَكّرْ"[1]، "عيد سعيد، "أحل، سألقاك" (بعد تلقيك رسالة قصيرة حدّد لك فيها الميعاد زمانًا ومكانًا)،... حيث كل كلمة تحمل في طياتها معلومة، بالإضافة إلى النصوص العلمية أو التقنية التي تُبْعد منها النية الانفعالية والجمالية.

وفي غالب الأحيان، فإن الوظيفة المرجعية تتقاطع مع وظائف أخرى، وهذا بالضبط ما كان واجبًا أن تضطلع به هذه الوظيفة، لأنّ المعلوماتية تسعى إلى خزْن ومعالجة الإعلام علاجًا أكثر نقاوة، وأكثر تجريدًا.

وأما الوظيفة التنبيهية أو وظيفة إقامة الاتصال بالمحافظة على بقاء الاتصال بين المتكلمين والسير الحسن لقناة التبليغ، ولذلك نراها تسبق التمفصل اللغوي، لأن ثغثغة المولود تؤهّله لإقامة الاتصال مع محيطه الّذي هو محيط غير لغوي بَعْدُ بالنّسبة له، ومن هنا يتبيّن لنا بشكل أو بآخر أن الكفاءة التي لا تتعارض مع مدلول الملكة تتقدم الأداء الفعلي لعملية الكلام لدى الإنسان،وأن الكلام لا يكتسب بقدر ماهو مجرد ترجمة وإفصاح، ما

1)- من أراد الدنيا يُبْكِر، ومن أراد الآخرة يُبْكِر.

تختزنه الكفاءة التي تُرى في نظرنا السطحي، وكأنها من تحصيل حاصل لعدم قدرتنا على تفسيرها عادة إلا على ماهو خارج لساني أو فوق اللغة.

وأما بيير قيرو Pierre Guiraud فقد تعرض إلى الوظائف الست، وهو يتحدث عن عالم الإشارات[1]:

- الوظيفة المرجعية التي تشتمل على صياغة ما يخص المحال إليه أو المرجع أو الدلالة التي تشير إليها اللفظة اللغوية إعلام صحيح، وموضوعي، ومتحقّق منه.

- الوظيفة الانفعالية Emotive الوظيفة التي يخبر المرسل بواسطتها المستقبل عن حالته الانفعالية بخصوص المرجع.

وأردف: "الوظيفتان المرجعية والانفعالية هما في الوقت نفسه متكاملتان متنافستان، بل خصمان، ويكوّنان القاعدة الأساس لكل تبليغ، وهما بذلك تقابلان ما ندعوه أحيانًا "الوظيفة المزدوجة للغة"، الأولى تفهُّميّة Intellective وموضوعية، والثانية انفعالية وذاتية، وتتطلبان نماذج ترميز Codage مختلفة جدًا، فضلاً عن أن الوظيفة المرجعية القاعدة الأساس للغات العلمية والتقنية، في حين أن الوظيفة الانفعالية تهيمن على معظم أشكال التبليغ الجمالي"[2].

---

1)- يراجع: Comprendre la linguistique, P : 285.

2)- السابق، ص: 285.

وأما الوظيفة الأمرية Injonctive (أو الندائية Conative) والتي قد تسمّى طلبية أيضًا، فتحدِّد طبيعة المرسلة Le Message بالنسبة إلى المستقبل وإلى التأثير الّذي يريد المرسلُ أو المتكلم إحداثه في نفس مستقبل مرسلته، وهناك مرسلات نوعية تؤثر في سماعنا وتترك شيئًا ما في نفوسنا كالنصوص الدينية، والأخلاقية، والسياسية، والفنية، فهي غالبًا ما تقنعنا وتغرينا وتصانعنا أو توهمنا وتخدعنا، إذ لا يوجد تبليغ بريء كليًا من شيء ما إطلاقا، وليس ضرورة أن تكون المشاعر متبادلة في تواصل لغوي بين مُخاطب وآخر مخاطَب، لكنا لا ننكر أن تكون هذه المشاعر متفاوتة من درجة صفر إلى أعلى درجة أو إلى درجة أعلى من أي تقدير مخمَّن أو متحيَّل تبعا لثقافات المرسل إليهم دينيًا واجتماعيا وعُرفيًا وأنتروبولوجيًا،... فالمسلم لا يتأثر بإشهار ناريّ ومُغْرٍ، إذا كان يتعلق بالخمر، ولحم الخنزير، والفاحشة،... وهنا أتذكر ما قلته في أحد المؤتمرات الحزبية في وقت بدأت الفضائيات تغزو ثقافتنا: "يجب أن نعلّم أبناءنا ونربّيهم على ألاّ يتأثّروا بما يتعارض مع ثقافتنا وقيمنا وديننا بدلاً من أن ننهاهم ونقهرهم أو نحاول إخفاء ثقافة غريبة عن مجتمعنا...".

على أي حال، بإمكاننا أن نستلهم الوظائف الأقرب إلى العقلنة منها إلى الوظائف الذاتية والانفعالية من خطاب المتكلم نطقًا أو كتابة، لأنه لا يوجد فارق وحيد يميز الحدود بين هاتين الوظيفتين، فأسلوب الجاحظ لا يطعن في درجته الرفيعة طاعن، ولكن قربه إلى العقل أكثر منه إلى الأدب،

لا يعني أنه أسلوب علمي صرف ولا حتى متأدب، وأسلوب طه حسين التي تغلب عليه الوظيفة الانفعالية لامتزاجه بالصدق المأساوي في "الأيام" غير أسلوبه في آثار روائية أخرى، والأساليب الواقعية كثيرا ما تغزوها الرعشات الرومانسية إذا ما أغرق كاتبها في ذاتيته المفرطة، ولاسيما في تعصير الذاكرة الطفولية المفقودة التي لا تستطيع ذاكرة أن تنوب مناها، ومن ثَمَّ فإن رسم سير الأنبياء والأبطال والنبلاء والقادة،...سِيَر محفوفة بالمخاطر التي لا يُدْرَك مداها، لأنه من الاستحالة بمكان أن يُسْرد عن هؤلاء يوم واحد صحيح، وما أكثر ما ينخدع الكتبة بالتركيز على الروايات الخارجية، لعدم اطلاعهم على الروايات الداخلية، فيأتي سردهم نتيجة لذلك انفعالا مزيفًا لا ينمّ عن أي انفعال حقيقي لا يمكنهم أن يعيشوه بأثر رجعي إلا تكلفًا وتعسفا واعتداء سافراً.

أما الوظيفة الشعرية فهدفها أن تركّز على المرسلة في ذاتها، لأن هذه الأخيرة لا تتوقف لتكون وسيلة التبليغ، والوظيفة الجمالية الفضلى هي وظيفة الشعر، وهذه الوظائف المختلفة تسترسل هنا لتشمل وظيفة ما فوق اللغة[1] ووظيفة إقامة الاتصال Phatique أو الوظيفة الانتباهية، وتتواجدان بالشراكة لكن بنسب غير متساوية في معظم أنماط التبليغ، فالوظيفة "المُفْلغيّة" هدفها أن تدلّ على تعريف السَّنَن Le Code الّذي

1)- تقترح تسميتها "الوظيفة المفلغية" Métalinguistique.

تشير إليه، "أنتم" ككل كلمات اللغة يمكن أن يظهر بمظهر ملفـوظ إما "استعمالاً" وإما "تنويهًا"، "ففي الحالة الأولى أنتم مرجعي، لأنه يشير إلى الشخص الّذي نتوجه إليه، والجملة في هذه الحالة لا تكون مهذبـة، وفي الحالة الثانية، فإن أنتم مرجع ذاتي Auto Référentiel، لأنه يشـير إلى الكلمة "أنتم"، إنه استخدام "مَفْلَغِـي" Métalinguistique يجب أن يكون مشارًا به عادة بوساطة هلالين مزدوجين أو حرف طبـاعي ماثـل يقابل وقفه خفيفة في الملفوظ المنطوق، لتكن الجملة:

1)- الكلب ينبح Le Chien aboie.

إذا قمنا بتحليل نحويّ، فإنّا نقول:

2)- الكلب فاعل الفعل ينبح.

فالكلب إذًا مرجع لكلمة "كلب"، لا لأي كلب كما في[1] يمكن أن نشير إليه، والمبدأ الّذي يلخّص الوظيفة المفلغيّـة أن كلمـة "كلـب" لا تنبح"[2].

ولذلك يرى اللّسانيون أنه من بين الوظائف الست أو الوظيفة المفلغية تحتل مكانة مستقلة، ذلك أنّ الوظائف التعبيرية والتحريضية والانتباهيـة ليست خاصة باللغة ما دام أنه يمكن الإفصاح عنها بوسائل غـير لغويـة كالسلوك، والإيماء، والحركة،... بينما الوظيفة المرجعية يمكن أن تُـؤدّى

---

1)- Pour Comprendre la linguistique, P : 28.

2)- Clefs pour la linguistique, P : 69-71.

بوساطة أنظمة أخرى متنوعة مثل البيانات الخطية والإيديوغرافية، والوظيفة الشعرية يمكن أن ترتبط بوظيفة جمالية أو بمعنى أوسع تلك التي تتضمّن كل شكل من أشكال التعبير الفني، وإذًا فالوظيفة المفلغية هي الوظيفة الوحيدة التي لا تنفصل عن اللغة، ما دامت أنها مركّزة على السّنن وعمله الوظيفي.

ومما يردفه لسانيون أن قسمًا كبيرا من النشاط المَفْلَغِي نشاط غير شعوري، يكون شعوريًا ونحن نتعلم لغة أجنبية أو نستكشف نظاميًا لغتنا الأم في إطار مدرسي، علمًا بأن هذه اللغة لا شعورية لدى الطفل المتمدرس الّذي يُصطدم بوجود نفسه أمام اختيارات شتى بما فيها الحقيقة والمجاز، ويذهبون إلى أن الوظيفة المفلغية ضعف عقلي Atrophiée عند المصابين بحبسه لسانية، وهؤلاء المصابون باضطراب التشابه يفقدون كل قابلية للاستعارة والمجاز ومقاربة الكلمات المتعادلة بوظيفتها أو معناها، ومن ثم فهم عاجزون على تنظيم الكلمات في مراتبها السانتكسية أو في حقولها الدلالية؛ وهذا يقودنا إلى الاستنتاج بأن هذه الشريحة لا يمكنها أن تفسّر أو تشرح ملفوظًا أو تترجمه إلى لغة أخرى أو تنقله في نظام آخر من العلامات.

دور الوظيفة التبليغية أو اللغوية

وأما جورج مونان[1] فإنه يرى أنه من أحد مكاسب اللّسانيات الحالية امتلاكها مَلْمَحًا دقيقًا ومتمايزًا يمكن لنا أن نَلْمَحَهُ عبر وظائف لغوية،

1)- ينظر: CLEFS pour le linguistique, P: 69-71.

وعلى رأس هذه الوظائف كلها الوظيفة التبليغية المباشرة بين الناس، ثم الوظيفة التعبيرية أو الانفعالية يَجْهَر المتكلم من خلالها بوجدانه طوعًا لا قصدًا مستعينًا بأشكال من التنغيم والإيقاع تصحب آهاته الكلامية. وحسب لسانيين آخرين وظيفة أخرى تُدعى الوظيفة الطلبية أو الندائية متميزة عن الوظيفة السابقة، لأن صاحبها يسعى بها إلى تحريض المستمع أو المتلقي ولإغرائه بفضل ما يوظّف من أصوات نغمية وكلمات وجدانية دون أن يقاسمه فيها كحالة الكذاب، والمنافق، والممثل، والخطيب الذي يتكلّم ببرودة،... ثم تأتي وظيفة تكوّن الفكر Fonction d'élaboration de la pensée، وهي أول وظيفة لوحظت منذ عهد الإغريق، لكن لم تكن الأولى بدون شك، تاريخيًا ولا وظيفيًا، وأخيرًا الوظيفة الجمالية أو الشعرية، غير أن جاكبسون يسند إلى اللغة وظيفة مَفْلَغِيَّة تستخدمها اللغة للحديث عن اللغة ذاتها، فعندما نقول: "عميروش فهو اسم علم" وعندما نقول: "أحمر هو اسم تفضيل"، وعندما نقرأ قوله تعالى: ﴿قَوْل مَعرُوف ومَغفرَة خيْر من صَدقَة يَتْبَعها أذى﴾ ونحلّلها تحليلاً إعرابيّا، نقول:

قــول	: مبتدأ مرفوع (دون التعليق هنا).
معروف	: نعت مرفوع.
و	: حرف عطف.
مغفرة	: معطوف مرفوع.

خبـــر : خبر مرفوع،..الخ.

وعندما نقول: "فيل، هو اسم حيوان"...الخ.

وتتذيّل الوظائفَ السابقةَ وظيفةُ إقامةِ الاتصال سـواء كـان هـذا الاتصال سمعيًا صوتيًا أم نفسيًا أم ثرثرة أو حديثًا خاصًا،...

غير أنه مهما كانت الحقيقة اللّسانية أو النفسية لأكثر أو أقل هـذه الوظائف المختلفة، "فإن الناس كلهم متفقون حول هذه النقطة: الوظيفـة التبليغية هي الوظيفة الأولى الأصلية والأساسية للغة، وما عداها من وظائف أخرى ليس إلا مظاهر أو نماذج غير ضرورية، زد على ذلك أن كل مرسلة على الأرجح وبشكل دائم مركّبة Composite بهـذا الخصـوص وأن المركّبَ التبليغي Composante communicative هو دائمًا القاعدة، حتى وإن كان مظهر أو آخر يهيمن على سبيل المصادفة"[1].

بين التبليغ والتواصل اللغوي

ويُستَنتَجُ مما عُرض من نظريات وأفكار لسانية حديثة بشأن الوظيفـة اللغوية أن حالة التبليغ قد تكون خاصة بالمتكلم نفسه دون قصد موجّه إلى مستقبل بعينه، وقد تكون موجهة نحو ملتقط بعينه ولذا يجب هنا أن نميّـز التبليغ والتواصل اللغوي، ويُستَنتَج أيضًا أن للتبليغ أوضاعًا تُحدَّد بوساطة:

---

1)- المرجع السابق، ص: 70

1- مشاركين يتحدّد دورهم من قبل الذات (أنا) أي (E G O) je،
وهو إسهام يشكل النقطة المركزية للتلفظ.

2- الفضاءات الحيّزية-الزمانية للملفوظ أو السياق المقامي Sitationnel الّذي يُعنى به هنا تلك العلاقة الزمنية إبّان أو لحظة التلفظ الّذي ينتج عنه آليًا إنتاج ما يسمى بالخطاب أو الفعل الكلامي، أي تحريك فونيمات ووحدات لغوية نائمة أو غائبة لتتجاوب آليًا وفي الآن ذاته دون تقدّم ولا تأخر مع الملفوظ الّذي لا يخلو من مظاهر تطبعه وأزمنة تحدده، لكن شكله لا تعيّنه جوهريًا إلا عناصره اللسانية لتطبعه بطابع لا يُطبع به غيره، وذلك دون أن ننسى العلاقات الفضائية أو الحيزية الحميمية أو العدوانية أو الحيادية بين الفاعل الذات من جهة، وأغراض الملفوظ المتلفظ به من الفاعل الذات نفسه من جهة أخرى، وعلاوة على ما ذكر، فإنه يضاف سياقات حالية ثانوية لكنها لا تَعدَم أهمية:

أ- حضور/ غياب.

ب- مسافات قريبة/ مسافات بعيدة.

ج- طبيعة العلاقات التي تصل المشاركين في عملية التواصل اللغوي، بما في ذلك العلاقات الداخلية فيما بينهم وبين أنفسهم، إذ ما أكثر ما يتحدث المرء بينه وبين نفسه عن خواطر داخلية إذا لم يكن له بُدّ من ألا يفصح بها لسواه، وما أكثر ما يتبادل الناس من خطابات رتيبة ساخرة أو هزلية لا تتجاوز كَوْنها ثرثرةً للاستهلاك الزمني كقارئ ينتظر قطارًا

متأخرًا، وأيا كان الأمر، فإن الصمت بصدد قول شيء ما، وقد يكون أحيانًا أبلغ من الكلام المبين، وفضلاً عما أشير إليه، فهناك أيضًا غرض الملفوظ المتنوّع نَمطيًا لمقتضيات الخطاب، وكذا العواملُ الاجتماعية والنفسية والتاريخية وعادات البيئة والمحيط الّذي يجري في فضائه الخطاب، فالفلاح البسيط المصاب بهاجس الجفاف، وهو ينظر إلى حقوله ومواشيه، لا يخطر بباله شيء من سوق المال والأعمال، والثائر لدحْر مُعْتدٍ لا يفكر لحظة في ثراءٍ وسياحة ومتاع.

نية التبليغ والقوالب الجاهزة

ومن المستبعد، مع ذلك، أن يتبادر إلى ذهن باحث لساني أن يخلو تبليغ لساني من قصد مباشر أو غير مباشر، لأن المواضعة أسبق دومًا من أية نية للتبليغ، بل في اللغات واصلات كلامية جاهزة إفرادًا:

- ضمائر الرفع والنصب.
- أسماء الأعلام، والأمكنة، والعواصم والمدن،...
- الأعداد، الجنس، الظروف.
- أدوات عاملة، مشتقات قياسية، أوزان مطردة.
- قواعد عامة،...

- وأخرى جاهزة تركيبًا:

- لا أبا لَك، ألا انعم صباحًا، أَبَيْت اللعن، صباح الخير، ليلة سعيدة، رابط الجأش، بطاقة التعريف، قُضي الأمر، دُبِّر لَـيْلاً، مكَانـك، القيـل والقال،... وثمت تراكيب قصيرة وأخرى طويلة شائعة بين العوام، وأخرى ذائعة بين الخواص، وتتمثل في الأمثال والحكم والتعابير الشعبية والرفيعـة السائرة مسار العبرة والشاهد والمثل:

- استوى الماء والخشبَةَ (أي مَعَ...).
- جاء فلان يضرب أَصْدَرَيْـــهِ.
- عسى الغوير أَبْؤُسًا.
- لا تأْكُلِ السمكَ وتَشْربَ اللّبنَ.
- ما حكَّ جلْدَك مثلُ ظُفْرِكَ.
- أَهْلُ مكّةَ أدْرى بشعابها.
- أحَشَفًا وَسُوءَ كِيلَةٍ؟

إن تبليغنا لا يَبْرأ براءة مطلقة من أبعاد اجتماعية ونفسـية وطبقيـة وأضرب شتى من الصفات، ولذا لا يمكنك أن تقف على تبليغ أحادي حتى لو خاطب المتكلم نفسه، فالتواصل اللغوي لا يـتم إلا عـبر شخصـين فصاعدًا،وليس ضرورة أن يقام دائمًا على الشـخص الأول (أنـا)، لأن الخطاب بما فيه من أمر أو نهي أو زجر أو تحريض أو استفزاز،... قد يأتيك من غيرك مثلما قد يصدر منك لغائب أو مخاطب، ويبقى موقف الخطاب الّذي يحدده السياق سيد التحديد كأن تستعمل لمخاطب مفـرد "أنـت"

وللمخاطب مفرد آخر "أنتم"، كاستعمالك تارة "سادتي" ومرة "زملائي" وطورًا "إخواني"،... فالفارق بين كل هذا فارق يُعبّر به عن مكنون ذات أو علاقة اجتماعية مغايرة من هذا إلى ذاك.

والفرق بين المرسِل والمرسَل إليه أن هذا الأخير إما أن يكون محددًا سلفًا أو مصادفة، بينما الأول أي المتكلم نفسه ليس مما يَصِحّ فيه ذلك، لأن كينونته تسبق تلفظه وخطابه، ولذا فإن ملفوظه المؤدَّى على عاتقه متفاوت أثَرُه اعتبارًا قلة أو كثرة لدى المخاطبين، وتتحدد مقاييس هذا التفاوت تبعًا لكيفيات وطبيعة الظروف وغرض الفعل المراد تبليغه، إذ ما أكثر ما نرى على المباشر خطيبًا يخطب، وبعض الحاضرين لا تأسِره عبارات الخطيب، وأخطر ما يكون الحال إذا ما تعلق الأمر بتبليغ أمر ذي أهمية بالغة.

نظام التبليغ

إن المعنى الذي يضفيه منظّرو الاتصالات واللسانيون على التبليغ يتجلّى في إعلام يرسل من مَضْرِبٍ إلى آخر، وليكن هذا المضرب موقعًا أو شخصًا، أما تحويل هذا الإعلام الإرادي من موضع أو من شخص إلى شخص فيُحبْك عن طريق مرسلة تحوي إعلامًا ما شريطة أن تكون مُرمَّزة ممن حاكها نحو متلقيها، لأن أول شرط يشترطه هذا الأخير فيما يستقبل من مرسلات أن يكون قادرًا على فكّها بفضل ما يوجد من مواضعة أو

سنن بينه وبين مرسلها، بمعنى أن يكون التبليغ للمرسلة محسًا وملموسًا في نظامه العلاميّ.

وحين نلحظ تبليغًا قد توطد بين نقطتين أو بين شخصين، فإننا ندرك لا محالة أن الأطراف المسهمة في هذا التبليغ أو النقل للمعلومة تُكوّن نظامًا منسجمًا لهذا التبليغ، وما ألمحَ إليه آنفًا في عملية التواصل اللغوي ينطبق على نظرية التبليغ هنا، لأن المخطط لهذا الأخير يفترض رموزًا مشتركة ومواضعة متبادلتين بين كل من المرسل والمرسل إليه في أية مرسلة تشمل كلماتها غرضًا، فهناك نسخ وانتساخ آليّات بينهما، والمنفذ الّذي يَنْفُذ منه المرسِل يتخذه المرسل إليه منفذًا له أيضا دون تردد ولا تساؤل، إلا إذا كان بينهما نقص أو تقصير من أحد الطرفين، ولذلك يُشترط نظام صارم لإنجاحِ عملية التواصل تحوي عناصر، تلخّصُها بعض المعاجم اللسانية[1]:

1)- القانون أو المواضعة التي أطلَقْتُ عليها السننَ استيحاء من أول كتاب فقلغي (فقه اللغة) عربي يصلنا بعنوان "الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها" لأبي الحسين أحمد بن فارس (308-395هـ)[2]، وهو ما يقابل Le Code الّذي يتضمن علامات تتصل بمستويات التواصل اللغوي المتواضع عليها سلفًا وفق نظام رمزي مشترك يرمّز من هذا، ويُفكّ

---

1)- يراجع: J.DUBOIS Dictionnaire de linguistique, P : 96-99.

2)- والسنن (بفتح السين وكسرها وضمها) الطريقة والوجه، وقالت العرب: "جاءت الريح سنائن" إذا جاءت على طريقة واحدة لا تختلف.

من الآخر، ومهما كان نوع التواصل اللغوي فإنه لا يتعدى سَنَنَه المكوّن في كل لغة من وحدات صوتية متمايزة غير دالة (فونيمات) ومورفيمات أو مونيمات وقواعد توافقية، والسنن نظام قبلي أبدا، بينما الكلام أو التركيب نظام تواصلي بعدي، وهما نظامان متعارضان، فالسنن نظام لغوي ثابت، وتوظيفه نظام كلامي متحرك، والأول قائم بذاته، بينما الثاني أداء بغيره، ويرى بعض اللّسانيين أن المخزون الّذي بموجبه نختار بين الوحدات لإنشاء مرسلات أو ملفوظات يعود إلى السنن، مع أنه في واقع الأمر أن السنن يتضمن كذلك مجموعة قواعد يسمح لنا من خلالها تنضيد هذه الوحدات فيما بينها، لكننا في هذا المعنى كثيرًا ما نتحدث عن نظام، فكلمة بنية تشير إلى كل قاعدة تركيب بحيث تجمع عددًا من الوحدات، كالوحدات السبع في قوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾:

لـ- نـ- سفعـ- ـا (أو نون التوكيد الخفيفة).

بـ- الـ- ناصية

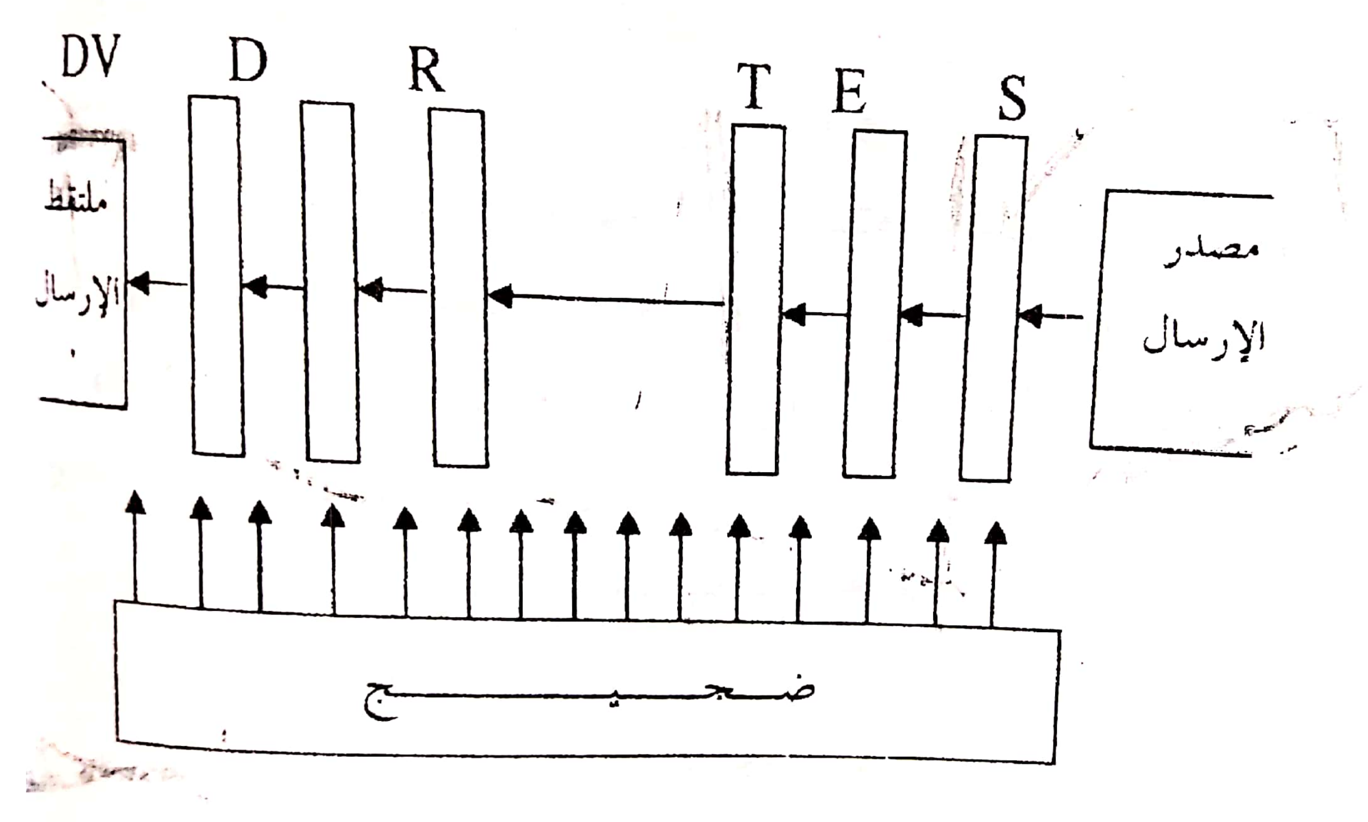
أو الوحدات السبع عشرة في قول الشاعر (النابغة):

إذا مَا غَزَا بالجَيْش أَبْصَرْتَ فَوْقَهُمْ   عصَائِبَ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ

كيف تتم عملية التبليغ؟

والملاحظ أنّ هذه البنيات تنتظم وفق مستويات متباينة، ولذلك تُعرّف اللغة أحيانًا لا نظامًا وحَسْبُ، بل نظام أنظمةٍ بتعبير دي سوسور، حتى وإن كان هذا التعريف غير نوعي ولا خاص باللغة، ما دام أن كل شيء لا

يمانع من أن يُضفى عليه تعريف مثل هذا[1]، فأي مادة متحركة أو جسم أو محرّك أو جهاز،... إلا وينطبق عليه هذا التعريف، ومع ذلك تنماز اللغة عن كل ما عداها من ظواهر أخرى سواء كانت جامدة متحركة معقدة أم بسيطة، لكونها تنماز بأنها شكل، وليست مادة، والمخطط أدناه يمكن أن يوضح لنا ماذا يحدث في نظام معدة أو جهاز (تليفوني) مثلاً[2]:



حيث:

Sélecteur =S ← مُنْتَخب (جهاز إلكترو مغنطيسي).

---

1)- يراجع: Clefs pour la linguistique, P : 87 GEORGES MOUNIN.

2)- يراجع: Dictionnaire de linguistique, P : 98 J.DUBOIS.

Codé تحت أشكال كثيرة، ولنأخذ مثالاً بسيطًا كما في الأمـر: "قفـوا Arrêtez-vous"، فإنه يمكن أن يؤدّى شفهيًا أو خطيًا أو بحركة أو بضوء أحمر أو بلوحة طرقية،... وإذًا فبعدة قنوات، وأن كل قناة تؤدّى بوساطة أنظمة كثيرة للترميز، والتي ستعطينا إشارات مختلفة، وهكذا فإن المرسـلة المستقبلة صعب عليها أن تكون مماثلة للمرسلة المبثوثة لسببين على الأقل:

- احتمال تشويه الإشارة بوساطة الضجيج المرسوم في مخطط شانون SHANNON.

- ندرة الملاءمة الكلية بين الإشارة والمرسلة سواء علـى مسـتوى الإرسال أو مستوى الاستقبال..."[1].

ولذا يبقى مخطط جاكبسون السداسيّ العناصر حتى الآن على الأقل:

3 سياق (مرجع)

1 مرسل ———— 4 مرسلـة ———— 2 مرسل إليه

5 اتصال (قناة)

6 سنـن

1)- السابق، ص: 4.

والمقابلُ الستّ وظائف:

3 مرجعيــة

4 شعريــة

2 ندائية أو طلبية

1 تعبيرية أو انفعالية

5 إقامة الاتصال

6 مفلغية أو تبليغية (ما فوق التبليغ)

أفضل تصور إدراكي للتبليغ اللغوي والإعلامي حتى الآن، وليس معنى هذا أن هذه العناصر الستة للتبليغ أول وآخر ما يوجــد في اللغــة مــن ميكانيزمات آلية للتواصل الإنساني بل كل ما في الأمر أن هذا ما أمكــن إدراكه، لأن لغتنا بوصفها تعبيرًا عن الفكر أو نظامًا مــن العلامــات أو ظاهرة من ظواهر التبليغ،... أكثر تعقيدًا ومنعة من أن تحــدّد ماهيتــها، وتُسبر أغوارُ مكنوناتها، لأنها ليست ظاهرة من الظواهر التي اكتشــفها أو سيكشفها الإنسان، بل نحن من نكشف أنفسنا عبرها، ولولاها لكنّا أكثر بكمًا وصَمَمًا مما يوازينا من مخلوقات.

الفصل الثاني: التحليل الوظيفي للمدونة

إشكـــاليـــة

إن الطريقة التي سنحاول نهجها في هذا التحليل أن نعتمد فيها مبدئيا اعتمادًا لسانيًا تطبيقيًا على عناصر من قصيدة النابغة:

يَا دَار ميــة بالعليـــاءِ فالسّـــدِ   أقْوَتْ وطالَ عليها سَالفُ الأبَــدِ

ولكنّ هذه الإشارة لن تمنعنا من تعضيد هذه القراءة اللسانية بالتفاتات إلى قصائد ونصوص وتراكيب خارج هذه القصيدة الدالية تعميقا لقراءتنا، و[illegible]يعًا للخطابات والتبليغات التي يقتضيها المقام، ويستدعيها السياق والتناص.

والسؤال الّذي حضرنا عفويًا، ونحن نهم بتحليل هذه المدونة النابغية تحليلاً وظيفيًا: هل كل ما في مدونات السماء والأرض، وتبليغات الأولين والآخرين ينحصر وفقط في ستِّ الوظائف التي ذكرها جاكبسون ومن نحا نحوه؟ لا أحسب أن راشدًا يغلق على فكره المنافذ ليظل أبد الدهر يدور حول نفسه في حلقة مفرغة؟

وكم كان ابن جني عظيمًا حين عبّر تعبيرًا غير حصري عن الوظائف اللغوية: "اللغة أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم"، وما الأصوات إلا دوالُّ اللغة المغلقة، وما الأغراضُ إلا مداليلُها المفتوحة، لأنّ لسانيا لم يعد يختلف مع صنوه[1] في أن موضوع اللغة بكل أبعادها البسيطة والمعقدة هو التبليغ، ولا شيء غير التبليغ.

لاحظنا، ونحن نحلل دالية النابغة أن كل خطاب يقابله تبليغ، وكلما تنوع التبليغ تنوع معه الخطاب، والعكس بالعكس، وخامرنا احتيار مقلق حال دون البث في هذه اللعبة التواصلية، ولربما دار بخلدنا سؤال خفيّ: ما جدوى هذا التزاوج بين التبليغ والخطاب؟ وإذا كان لابدّ لهما معًا وفي آنٍ، فما الّذي يرأس منهما الآخر أو يهيمن على صاحبه؟

وفي جميع الحالات، ينبغي ألا يَسبق اللاحدث الحدث، وليس أمامنا مبدئيًا إلا أن نقرّ طوعًا أو كرهًا بالست الوظائف، إذا ما أردنا أن نخرج من قراءة المد والجزر، والتطلع في كل مرة إلى التجريد والتنظير اللّذين عادة ما يقوّضان لسانيات النص والتبليغ.

---

1)- إذا خرج نخلتان (أو شجرتان) أو أكثر من أصل واحد، فكل واحدة منهنّ صنْو (بضم الصاد أو كسرها)، والمثنى صنوانِ، والجمع صنوانٌ، وفي الحديث: "عمّ الرجل صنْوُ أبيه"، وقال الله تعالى: ﴿صِنْوَانٌ وغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾.

ماهو السبيل؟

وقبل أن نقدّم على تحليل مدونة أو نص، فينبغي أن نتساءل مع المتسائلين: هل تُؤْخَذُ الاستعمالات اللغوية من قبل الناطقين بها والمستعملين إياها، ونحن نصف اللغة بعين الاعتبار؟ خاصة وأن لسانيين أمثال كارناب CARNAP وموريس MORRIS يرون أن السانتكس والسيمانطيقا اللتين تدرسان نواة اللغة بذاتها يجب أن تكون دراستهما بعيدة عن أي اعتبار براغماتي[1] PRAGMATIQUE للوقوف على كيفية استعمال الناطقين للغة في تخاطباتهم الملموسة، ولكن هذا إن صدق على التبليغ، فإنه لا يصدق على التلقّي، فالتبليغات التي نتلقاها زمنيًا أو تزامنيًا قد تؤثر فينا عنوة، فنتفاعل معها تفاعلاً قد يكون سلبيًا، وقد يكون إيجابيًا، ولا يُستثنى من هذا إلا استعمالات لا تتجاوز نفسها (لعب الأطفال، الاستعمالات المنطقية والرياضيّة، الاستعمالات التعليمية،...)، وحتى هذه الاستعمالات

---

1)- فضّلنا الاستعمال الأجنبي، لأنه لا يوجد حتى الآن مصطلح لساني عربي مريح يقابل PRAGMATIQUE، وهي دراسة كيفية استعمال المتكلمين للغتهم استعمالا ملموسا، وتعرّفها بعض المعاجم اللسانية أن المجلّى (المظهر) أو الهيئة البراغماتية للغة تعني خاصّيات استعمالها من حيث التعليلات النفسية للناطقين، وردود أفعال المخاطبين Les interlocuteurs، والأصناف المشتركة في الخطاب، ومواضيع الخطاب... بالتعارض مع الهيئة السانتكسية (الملكيات الشكلية للإنشاءات اللسانية) والطابع الدلالي (العلاقة بين الكيانات اللسانية والعالم).

التي لا تتجاوز نفسها لا تَبْعُد من أن تكون وظيفة تمثِّل (لغة) وفعلاً للتعبير (كلام) بأحد معاني قوستاف غيوم GUSTAVE GUILLAUME، لأن هذا الأخير سعى إلى تمييز النظام اللغوي عن استعماله المشار به فعليًا إلى الكلام، باعتبار النظام اللغوي لا يستنفد كل ما بحوزته، وهو يعبر عن غرض معين، حتى كأن لكل تبليغ وإرسال نظاما قائما بذاته فكرًا ولغة وأداء، وما يجمع النص -مثلاً- ومتلقية الثاني (القارئ مثلا) النظام نفسه بين إرسال واستقبال، والّذي نراه أن النص هو الذي يولج المتلقي في ذات النظام على أن يكون له سنن CODE مشترك مع صاحبه.

ثبوت الإرسال وتعدد الاستقبال

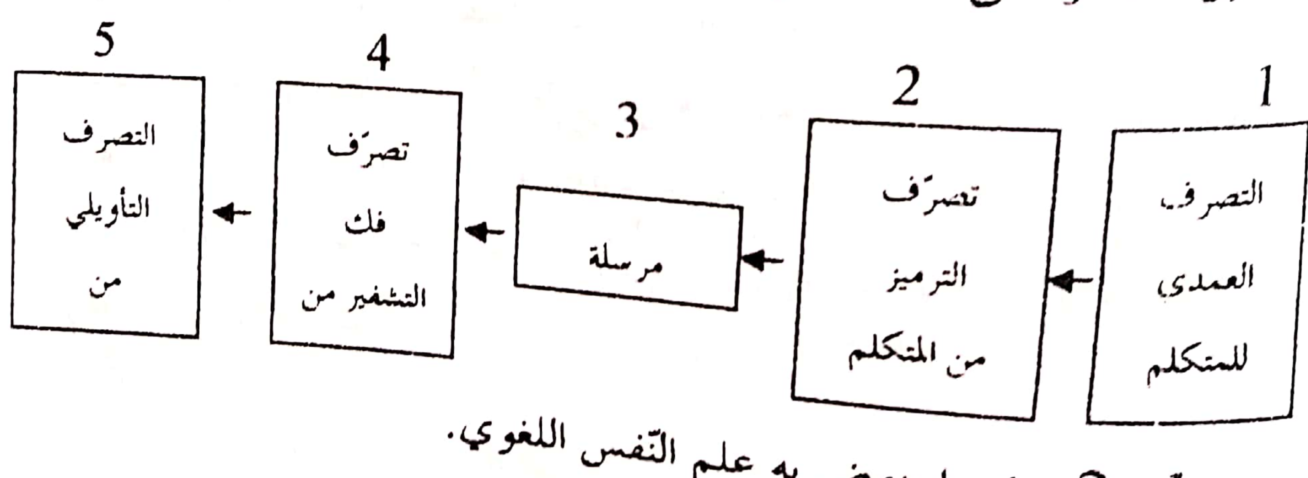
وتبسيطًا للأشياء، فإن المرسِل أو المتكلم المتفوِّه بملفوظ، وأما المرسَل إليه فأكثر من واحد، المرسِل يظل أبدًا ثابتًا ثبوت مرسلته أو نصه؛ خلافًا للمرسل إليه الّذي يتعدَّد بتعدد العصور والقراء والدارسين والسامعين غير أنه يجب أن نميز بين مرسل إليه جوهري وآخر ثانوي أو فرعي، فنحن ملتقطون فرعيون وثانويون أو فضوليون ولا علاقة لنا بشكل مباشر مع هذا المرسِل إلاّ بما يربطنا معه من نظام لغوي مشترك، ووجدان إنساني، وإحالات أكل عليها الدهر وشرب، ولذا فنكون أقرب إلى الجنون كلما ذبنا في نص ذوبانًا وجدانيًا أو انفعاليًا.

مــا تقتضيه المرسلة

إن المبدع يبدع مرسلة Un Message بغية التـأثير في مسـتقبِلها الجوهريّ، ومرسلته تقتضي منه:

1)- سياقا أو مرجعًا أو محالا إليه مفقوها من النعمان.

2)- مرسلة ذات مواضعة أو سنن مشتركة قام بترميزه أو تشـفيره بعناصر لغوية تمكّن المرسل إليه أو النعمان (هنا) بفكها أو تفكيكهـا، لأن المبدع أو المتكلم مشفِّر Encodeur والمتلقي أو القارئ فاكّ أو مفكّـك Décodeur، واقتضت المرسلة من باثّها قناة يبلّغ بمقتضاها ما يريـد أن يصل صاحبها هذه القناة لم تكن فيزيائية، ولا صوتية مباشرة، ولربمـا لم تكن حتى خطية، ولكن أحدًا لا ينبغي أنها ارتباط نفسي بين الشاعر المعتذر والملك الغاضب، ونتصور وصولها إليه كتصورنا لاتصالات دارة تنوير من هذا إلى ذاك أو على هذا النحو:



1+ 2 ← ما ينهض به علم النّفس اللغوي.

3 ← مــا يــخص اللّسانيــات.

اللغوي.

4+ 5 ← ما ينهض به علم النفس اللغوي.

1+ 2+ 3+ 4+ 5 ← المرسل+ المرسل إليه.

المرسل درجات لا درجة واحدة

وقد يخطر ببال أحد أننا أمام مدونة شعرية لا تمثل مرسلة واحدة، بل مرسلات، إذ ما شأن النعمان بذكر الشاعر دار ميَّةَ ووُقُوفه وبكاءه عليها، ووصفه عراكًا بين ثور وحشي وكلاب،...؟ والجواب الممكن هنـا أن المرسلة درجات لا درجة واحدة، وتدريجية ونهائية، وخاضعة ومسيطرة، ولكلّ مرسلة بنيتها الكلامية الدالة على تبايناتها، ولا هيمنة لبنية لسانية على بنية لسانية أخرى أيًّا كان نوع المرسلات ودرجاتها، وهذا لا يحتاج إلى جدل حتى على مستوى المفاهيم التقليدية للأسلوب الّذي يُميّز فيه بين مستويات "رفيعة" وأخرى "ركيكة"، أي إذا قبلنا باحتواء مدونة مرسلات أحيانًا أو غالبًا، فإنه من العبث أن نقبل بوجود بنية أسلوبية قوية هنا، وبنية أسلوبية ضعيفة هناك، مع أن الأمر من قبل ومن بعد لا يعْدُو أنّ ما تقتضيه بنية هنا لا تقتضيه بنية هناك، فالمطالع الشعرية العربية الجاهلية عادة ما تبدو لنا، وكأنها متشابهة، وهذا حكم وهمي لا ينمّ إلا عن قراءة سطحية تقليدية ربما نَفِد عطاؤها تلقيا، ولم ينفد زادها بنية.

الخطاب بين الغياب والحضور

لا توجد بنية لغوية تشبه بنية لغوية أخرى، حتى من توارد الخواطر، إلا من باب القصد في حدود متعارف عليها بين المبدعين الفطاحل، وتوثيقها الضمني يكمن في شهادة السابق على اللاحق، حتى لو كان هذان الأخيران شخصًا واحدًا بعينه، وهذا ما كنت أطلقت عليه تقريبا "تمثلات بنصوصية للخطاب بين الغياب والحضور"[1]، وقلت ساعتها،وأنا أحلل إحدى قصائد طرفة: "إن المتكلم هنا لم يختر الوحدات الدالة التي أراد أن يتراسل بها معنا من قبيل الصدفة،... بل لما اقتضاه الخطاب الّذي استدعى أن يكون بهذه الكيفية مقابل عدم استدعائه أو اقتضائه أن يكون بطريقة أخرى، ووجوده بهذه الكيفية يمثل علامة حاضرة مقابل علامة غائبة تمثل (صفرًا) مقابل علامة متوقّعة تمثل خطاباً محتملاً..."[2].

وقلت ساعتها أيضا:

إن مطلع نص طرفة:

أتعْرِفُ رسمَ الدارِ قَفْرًا منازِلُه ... كَجَفْنِ اليَمانِ زَخْرَفَ الوَشْيَ مَاثِلُهْ

"يمكن أن يقابل على مستوى المتكلم نفسه علامة غائبة غير محددة بعلامة مثيلة أو نقيضة، ويمكن أن يقابل علامة حضورية قيلت وانتهت،

---

1)- في مؤلفنا "التحليل اللساني البنيوي للخطاب"، ص: 54-60 طبعة 2001-2002، دار الغرب للنشر والتوزيع (وهران).

2)- المرجع السابق، ص: 56-57.

والإبداع التركيبي ما كان وسطًا بين هاتين العلامتين بصورة مستمرة، وإلا لما كان لأي قول تال أي معنى إلا التضخمات والتراكمات"[1].

ومن ثمّ فإن التركيب السابق ممكن أن يقابل لدى المتكلم عينه (هنا طرفة) تركيبًا آخر، في فضاء آخر، وزمان آخر، ومناسبة أخرى:

لِخَولةَ بالأجْزاعِ من إضَمٍ طَلَلْ — وبالسفحِ من قوٍّ مقام ومُحتَمَلْ

وأشرت أيضًا إلى أن هاتين العلامتين يمكن أن تكونا متبادلتي الغياب والحضور على مستوى متكلمين اثنين فأكثر، فالتركيب:

فيَالَكَ من ذِي حَاجةٍ حِيل دُونَها — ومَا كلّ ما يَهوَى امرؤ هُو نائلُهْ

وهو لطرفة بن العبد البكري، يمثل علامة حاضرة، لأنه قيل وانتهى، ولكنه لا مانع له من أن يقابل علامة متوقّعة في نفس الحيز الدلالي على أن يعبَّر عنها بوحدات دالة مختلفة كليًا أو جزئيا:

ما كل ما يتمنّى المرء يدركه — تجري الرياح بما لا تشتهِي السُّفُن

المدونة تبليغ أم خطاب أم إرسال؟

وحتى لا نبتعد عمّا نحن بصدده، فإن المدونة تعدّ تبليغًا وخطابًا وإرسالا جميعًا:

---

1)- نفسه، ص: 57.

1)- تبليغا لأنها فعل كلامي صادر عن متكلم فاعل نحو مخاطب تتعين صفته بالحضور أو الغياب والتقدير.

2)- وخطابا لأنه معادل للكلام صدر شـفهيًا، ودوّن في الـذاكرة الجماعية، وها نحن أولاء نخُطُّه، والخطاب خطابات[1].

أ- القناة المستعملة (خطاب شفهي/ خطاب كتابي).

ب- البعد المسافي بين المتكلم وما يقال (خطاب من الشخص الأول/ خطاب من الشخص الثالث).

ج- الطابع المباشر أو المؤجّل للإرسال (خطاب مباشر/ خطاب غير مباشر، خطاب منقول Discours Rapporté).

د- العلاقات بين الخطاب والواقع المشار إليه (خطاب جليّ أو مستقل معناه كله محتوًى في العبارات التي تؤلّفه/ خطاب ضـمني Implicite أو مناسب En situation معناه كله تابع لعناصر غير لسانية حاضرة خلال عملية التبليغ، وهذا الضرب من الخطاب يعدّ القاعدة الأسـاس لمنـاهج ... العصرية.

هـ- العلاقات بين مخاطبين أو محادثين Interlocuteurs (خطاب تعليمي/ خطاب جدلي أو هجومي...).

و- موضوع الإسناد أو المرجع (خطاب سياسي/ خطاب علمي...).

---

1)- يراجع: Dictionnaire de didactique des langues P : 157-158.

في حين تعرّفه بعض المعاجم اللسانية الأخرى بقولها[1]:

1)- الخطاب وضع اللغة موضع الفعل.

2)- الخطاب وحدة مساوية أو أكثر من الجملة، إنه مؤلّف من تتابع مكوّن من مرسلة ذات بداية ونهاية.

3)- الخطاب في مفهوم أو معنى اللسانيات العصرية يُعْنى به كل ملفوظ أعلى من الجملة، ومن ثم فإن منظور التحليل للخطاب يتعارض مع كل تحليل بصري أو نظري Optique يحاول أن يعالج الجملة كوحدة لسانية نهائية، ويرى المصدر ذاته أن الإشكالية السابقة لتحليل الخطاب لم يكن بإمكانها من وجهة نظر لسانية أن تكون إلا مرادفًا للملفوظ Enoncé، والتّضاد ملفوظ/ خطاب كان يشير فقط إلى التضاد بين لساني وغير لساني "إن اللسانيات كانت تعمل على صعيد الملفوظات المتجمّعة في المدونة، والتي كانت تسمح بالتحليل، وأما قواعد الخطاب، أي دراسة نسق القول المبرّر تنسيق تتابع الجمل، فكانت تحال على نماذج ومناهج أخرى، وخاصة على كل منظور كان يأخذ بعين الاعتبار المتكلم الذات"[2].

ودون التعريج على العديد من النظريات اللّسانية التي قد تبعدنا أزيد مما تقربنا مما نحن بصدده، فإن الخطاب لسانيا تناسق وتتابع وحدات أو

---

1)- يراجع: J.DUBOIS Dictionnaire de linguistique, P : 156-158.

2)- نفسه، ص: 157.

عناصر لسانية لتبليغ مرسلة تصدر من شخص متكلم نحو ملـستقط آخـر حاضر أو غائب أو مفترض، وأهم ما في الخطاب شقّاه المباشـر وغـير المباشر، فالخطاب المباشر يعنى به أن يكرِّر السارد أو الحاكي كلام أحـد، حيث يعيد إنتاجه كما قيل، وبعبارة أخرى تكون العبارة أو التبليغ أسلوبًا مباشرًا عندما تفصح أو تعبّر عن فكر من يتكلم وفي الوقت الّذي يـتكلم فيه، وعليه فإن الأسلوب يتضمّن كلام شخص كما وُجِّه إلى أحد[1]:

قال البلوط يومًا إلى القصب: "إنك كائن صالح لاتّهـام الطبيعـة"، والأسلوب المباشر مرادف للخطاب، وهي الكلمة الأكثر مناسبة للحالة أو الظرف، لأنه لا يستدعي أي حكم قيميٌّ على الملفـوظ، والخطـاب (أو الأسلوب) المباشر كما يدلّ عليه اسمه حالة أو كيفية للتلفظ الّذي يـورّط الاشتراك "المباشر" لمتكلين في الملفوظات المنتجة، على حين أن الخطاب (أو الأسلوب) غير المباشر يؤجّل الملفوظات المنتجة مـن قبـل مـتكلمين في مقامات التبليغ المختلفة[2]، ومن ثم يقال تركيب إنه أسلوب (خطاب) غير مباشر عندما لا يفصح أو لا يعبّر عن فكر الشخص الّذي يتكلّم في نفس الوقت الّذي يتكلم فيه، بل يؤخّر الفكرة في خطاب منقول، وإذًا الخطاب "غير مباشر" يخضع عادة إلى أفعال مثال قـال، ظـن، اعتقـد، زعـم، ارتأى،... المعبِّرة أو الضّمنية.

---

1)- ينظر: Le Français facile pour tous, P : 380.
2)- ينظر: Dictionnaire de didactique des langues, P : 531.

ومما جاء لدى ميشال أريفي Michel ARRIVE عن الخطاب أنه تتابع أو ترابط أجوف Concaténation لوحدات لسانية صِرْفٍ تفصح عن النص، ويكون التتابع أو التناسق لهذه الوحدات اللسانية بدءا من الفونيم إلى الجملة "وهذا المفهوم للخطاب يلفت النظر إلى أن مادة النظام للعلامات (أو الممارسة الدالة) التي تنشئ النص ليست شيئًا آخر غير خطاب للغة طبيعية (مثلاً اللغة الفرنسية)، وبالمثل فإن مادة النص الرّسْمي[1] مجموعة خطوط وأشكال وألوان، وهذا الاستخدام لكلمة الخطاب يناظر الاستخدام الّذي استعمله هاريس HARRIS، وبالمقابل لا علاقة بالاستخدام الّذي نجده لدى بنفنيست BENVENISTE"[2].

3)- وإرسالاً، وهذا الأخير يستدعي أن يكون مُجهّزًا أو مَحْبُوًّا بمرجع بوساطته إلى موضوع الخطاب ليبيِّن أيَّ شيء يحيل إليه، والإرسال عبر مرسلة متنوع تنوع طبيعة ما يُرْسَل من هذا إلى ذاك، وكل هذا لا يجرّده من صفة موضوع، كأن يكون رسالة عادية أو غرامية أو أمرية،... أو خريطة أو زخرفة (إذا خرجنا عن الإرسال اللساني).

ويبقى أن كل إرسال له مادة يرسل بها، وإذا تعذر على الإرسال اللغوي أن يكون مادة، فإن شكله شفهيًا أو خطيًا يجسد مادته، إذ في

---

1)- PICTURAL (مختص بالرسم والصور)، وليس الرسمي بمعنى OFFICIEL.

2)- Comprendre la linguistique, P : 107-108.

تواصلنا لا نتبادل العلامات ولا الإشارات، بل المواضيع والأغراض، فالنابغة حين استهل قصيدته:

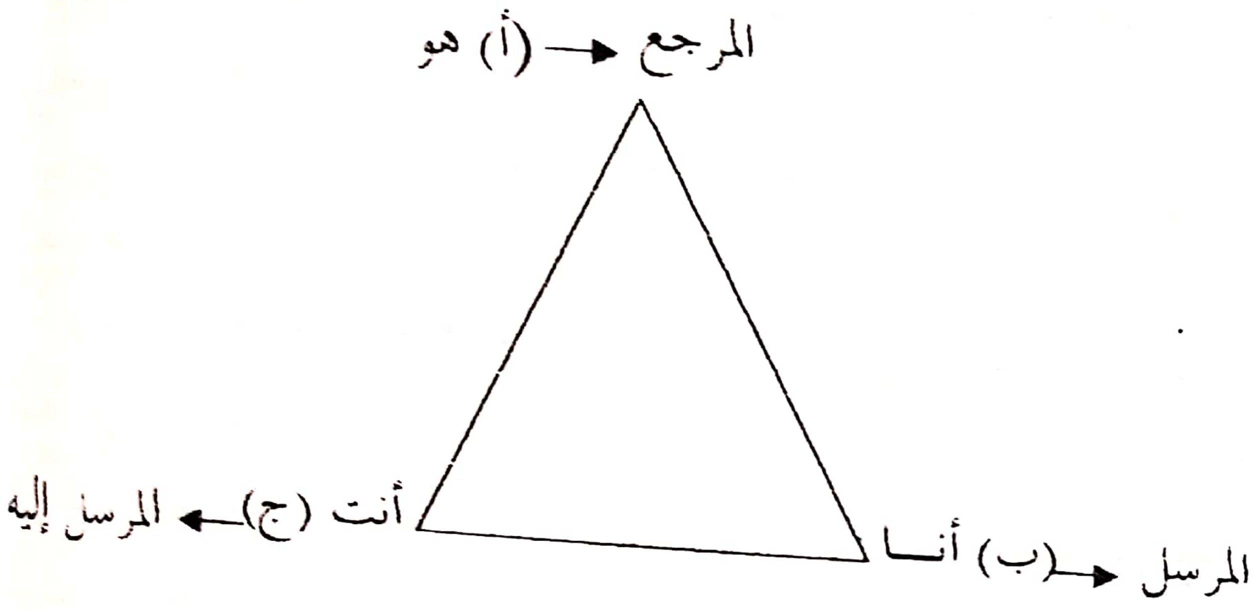
يا دار ميّة بالعلياء فالسند أقوت، وطال عليها سالف الأبد

وقفت فيها أصيلانًا أسائلها عيّتْ جوابًا، وما بالربع من أحد

لا يراسلنا بعلامات جوفاء، بل بمواضيع وأغراض تجسد دار مية بمكان بعينه، بل ليس أي مكان، إنه مرتفع مسند إلى جبل واصفا الحالة المزرية التي آلت إليها بعد عزّ وحركة دائبين ، ودور العلامات أن تنوب عن أشيائها بعينها، ومن ثمّ نُغرَى بالإشهار السمعي البصري أكثر مما نُغرى بعلاماته، ورحم الله العرب القدماء: "ليس الخبر كالعيان"، ومن ثم لا توجد مكانة لما يسمّى نظرية التماثل La théorie de la correspondance القائلة بوجود تماثل بين الكلمة والشيء المشار إليه.

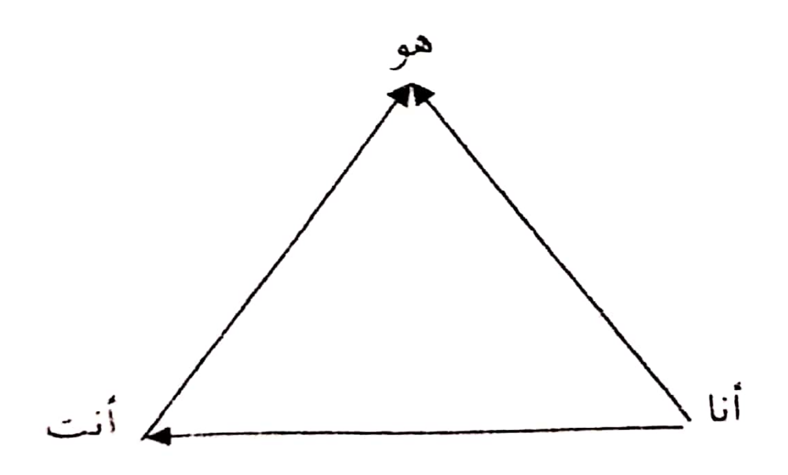
شخوص المدونة ولعبة الضمائر

إننا أمام قصيدة غنائية لا يتجاوز شخوصها ممثلين ثلاثة: أنا (المرسل)، أنت (المرسل إليه)، هو (إعلام أو مرجع):

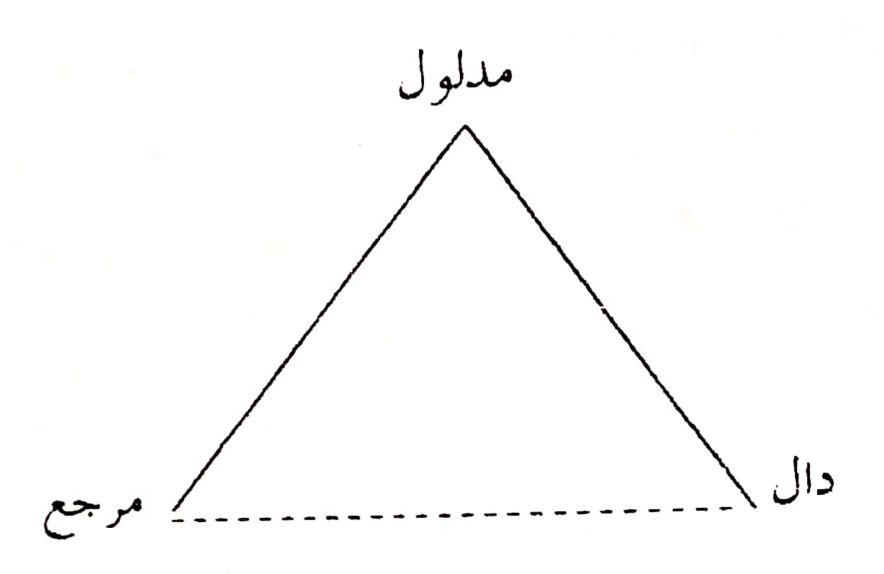


الإحالة إليه القمّة.

وقد يتساءل متلقٍّ هنا: كيف يتبوّأ المتحدَّثُ به أو ويكون دونه المتحدّث إليه، بل المتحدّث نفسه؟ والواقع أن الاهتمام باستحضار الغائب أولى ثمّ أولى من الالتفات إلى أنا وأنت اللّذين عادة ما يكونان متلازمين في أي عملية تواصلية، ومن ثمّ وجب ضمان ماهو خارج هذه العملية لإتمام صفقة ماهو بداخلها، وكان بإمكاننا أن نمثل هذه العملية التبليغية بطريقة أخرى، ولتكن:



باعتبار المرسل والمرسل إليه يتبادلان المرجع نفسه، ولا يجوز لما نحن فيه أن يكون على شكل المثلث السيميوطيقي الذي مثّل به أوجْدن وريشارد OGDEN et RICHARD:



لأنا إذا كنا لا نعتبر عدم وجود علاقة مباشرة بين الشيء وتسميته، فإننا نعدّ ما في مدونتنا كل وحدة وُظّفت فيها توظيفًا اكتسى تصورًا ذاتيا متواضعًا عليه سلفًا بين الناطق والمخاطب المباشر أو من يدخل في فلك المواضعة نفسها حينا أو لاحقا.

وفعلا، فإن الشاعر استخدم هذه الضمائر الثلاثة:

يا دار ميـــة بالعليــاء فالسنــد أقوت وطال عليها سالف الأبـد

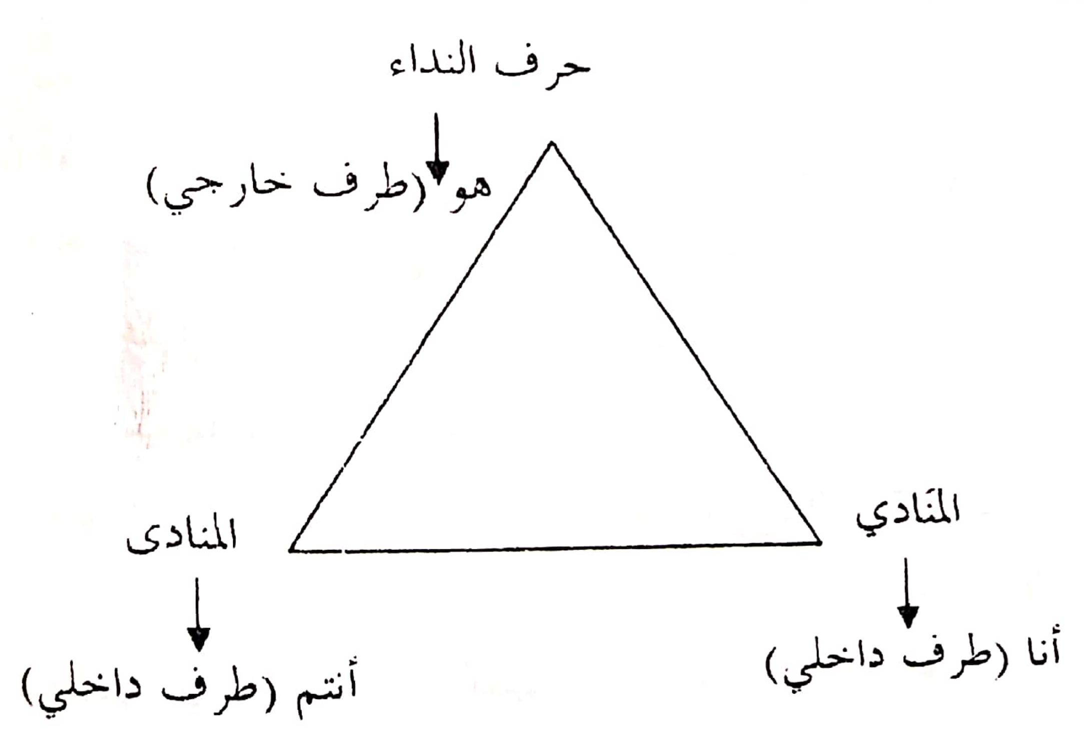
فاللغويون يخبروننا أن تركيب "يا دار مية" له ثلاثة تحاليل سانتكسية:

1)- يا دار ميَّة، فينصب "دارًا" على النداء ثم يضيفها إلى "مية".

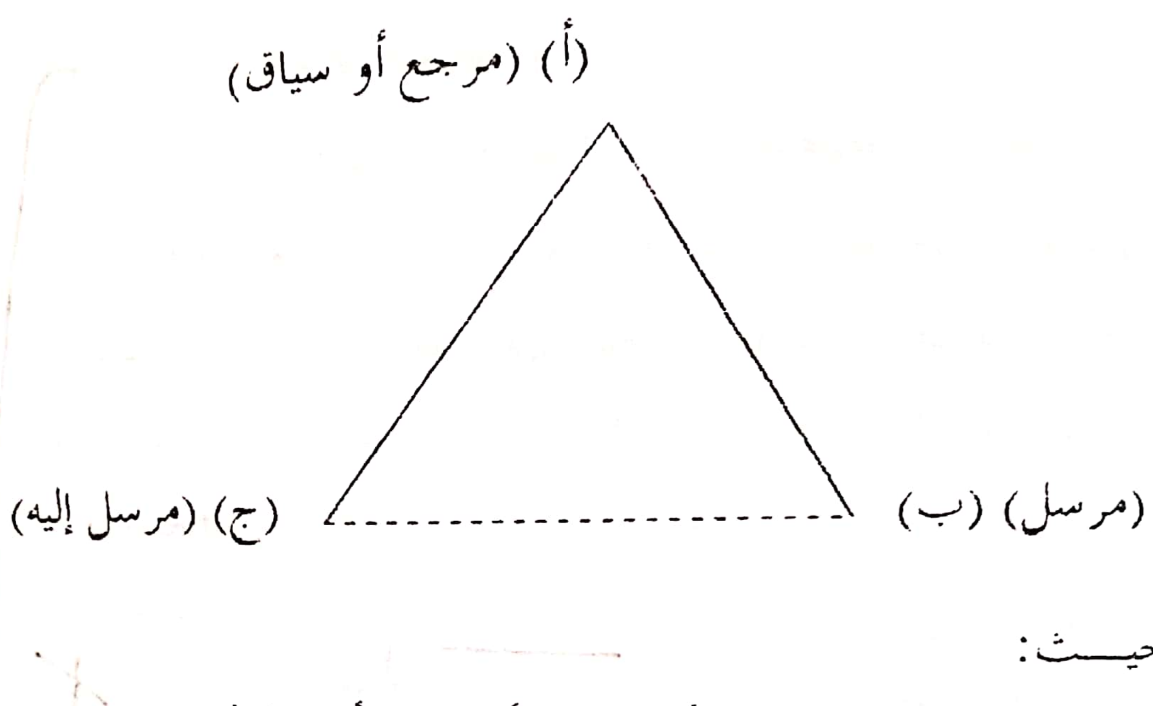
2)- يا دارُ ميَّةُ، فيرفع "درًا" بالنداء المفرد، ويرفع "مية" بالإخبار عنها.

3)- يا دار ميَّة، وهو يريد "يا داري" فيجتزئ عن الياء بكسرة الراء، وهي لغة شائعة في القرآن الكريم وأشعار العرب.

وهذه التحاليل الثلاثة كلها صحيحة، ولكنها لا تمنع كون وظائفها الثلاث وظيفة موجهة من (ب) أي أنا إلى (ج) أي أنت على خط واحد ذي طبيعة خطية أفقية، أي من المتكلم أو المرسل المنفعل إلى مرسل إليه لا يقصد به طللا ودمنة لدار مُقْوية بقدر ما يريد به أهل الدار، ولـذا فـإن النداء الذي صرخَ به في أول وحدة دالة لم يكن نداء بريئا من حيز دلالي ثلاثي الأبعاد: دال+ مدلول+ قصد:



أو يمكن تصوره:



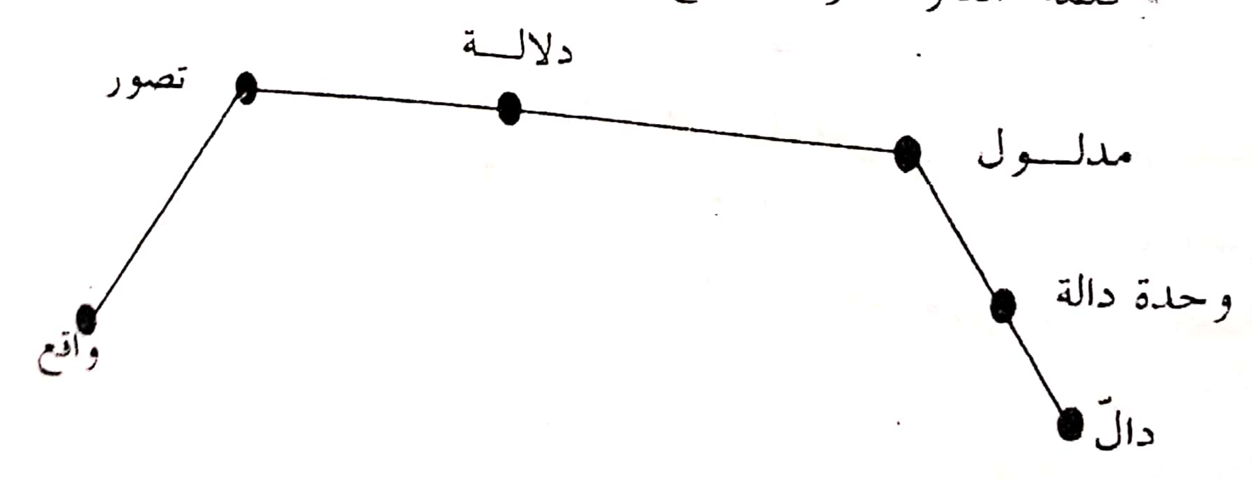
حيــث:

أ = إحالة أو تصور أو مدلول.

ب = دال رمز (كلمة بوصفها شكلاً داليًا مع صورتها الصوتية السمعية).

ج = مرجع أو الشيء المســمّى حيــث لا توجد أي علاقة بين الشيء وتسميته.

• كلمة "الدار" تدرك خارج لساني في مستويين: منطقي ونفسي:



المدونة والوظيفة التعبيرية

والشاعر هنا بوصفه مرسلاً مرتبط بالوظيفة التعبيرية بمصطلح مارتي MARTY أو الانفعالية أو العاطفية المقترحة من جاكبسون الّذي يميل إلى مصطلح مارتي بسبب ما وقف عليه أن الناحية العاطفية الصرّف في اللغة ماثلة بوساطة حروف التعجب والنداء والندبة والاستغاثة وما دلّ على الإعجابات الانطباعية السياقية التي لا حصر لها:

بِنَفْسِيَ هَذي الأرضُ ما أطيب الربا	وما أحسن المصطاف والمتربّعا
أرى أمَّ عمرٍو دمعها قد تَحَدَّرا	بكاءً على عمرو، ما كان أصبرا!

إن البيت الأول (بنفسي...) يحوي أسلوبين تعجُّبيّين يدلّان على انطباع المتكلم، وهي وظيفة تعبيرية، والأبيات(1):

فيالكِ حسرةً ما دُمْتُ حيًّا	تَرَدَّدُ بَيْنَ حَلْقِي والتَّراقي
حُسَيْنًا حين يطلبُ بَذْلَ نَصرتي	على أهلِ العداوةِ والشِّقاقِ
ولو أنّي أواسِيه بنفسي	لَنِلْتُ كرامَةً يومَ التّلاقي
مع ابن المصطفى نفسي فداهُ!	فيا للهِ من ألمِ الفِراقِ

فالشاعر يخاطب في البيت الأول نفسه، فيجعل من نفسه مرسلاً ومرسلاً إليه، وانطباعه صادق في هذا الشعر الرثائي الّذي لا يختلف عن الشعر الغنائي ينم عن وظيفة انفعالية، والبيت الأخير يحوي أسلوبًا تعجبيًا

1)- هذه الأبيات قالها عُبيد الله الجعفيُّ في رثاء سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنهما.

في شطره الأول (نفسي فداه!، وأسلوب استغاثة به (فيــا للّه) في الشــطر الثاني، وكلاهما يشير إلى وظيفة تعبيرية أو انفعالية، ومن هذه الأســاليب قول ابن الرومي في رثاء ابنه الأوسط:

توخّى حِمامُ الموت أوسطَ صبيتي فَلِلّهِ كيفَ اختَار واسطةَ العِقْــدِ؟!

والفرق بين النداءين في:

يا دار ميــة بالعليــاء فالسنــد أقوت، وطال عليها سالف الأبــد

والنــداء فــي:

فيــا لله مــن ألــم الفــراق

أن وظيفة ياء النداء في الأول نداء طلبي، ووظيفة الياء في الثاني نــداء ندبة واستغاثة، لأنه مهما تعددت النداءات في مثل هذه الحالات، فإنها لا تتجاوز المتكلم نفسه، وعلى قدر انفعاله تتحدد وظيفة ياء النداء، لكــن الوظيفة تبقى نفسها، ولذلك أشار جاكبسون، كما سبق أن ألمعنا، إلى أن [illegible] الأدوات تبتعد عن النهوج أو الأساليب اللغوية المرجعيــة في وقــت [illegible] قبل صورتما الصوتية، طالما أننا نجد ترنيمات صوتية خاصة وحتى أصواتًا غير عادية في كل مكان آخر، ومن قبل دورها السانتكسي، ما دام أن حرف نداء أو تعجب أو استغاثة،... ليس عنصر جملة، بــل معــادلاً لجملة بأكملها: "وامعتصماه!".

وا: حرف ندبة ونداء، ويمكن استعمال "يــا" إذا دلّت القرائن على ندبتها.

معتصم: منادى مندوب مبني على ضم مقدر بسبب الفتح المناسب لألف الندبة.

ــا: الألف للندبة.

ه !: هاء السكت.

قال أحمد بن عبد ربه في رثاء ابن له:

وَا كَبِدًا قـد تقطَّعَـتْ كَبِـدِي — وحرَّقتهـا لـواعِجُ الكمـد

ماماتَ حـيٌّ لِمَيْـتٍ أسَـفًا — أعْـذَرُ مـن والـدٍ علـى ولـد

يـا رحمـةَ الله جـاوِرِي جَـدَثًا — دفنـتُ فيـه حُشَاشَـتِي بيـدِي

ونـوِّرِي ظُلْمَـةَ القبـور علـى — مَنْ لم يَعِـشْ ظُلْمَـةً إلَـى أحـد

من كانَ خِلْوًا مِنْ كـلِّ بائقـةٍ — وطَيِّبَ الـروحِ طاهـرَ الجَسَـد

فالندبة في "وَا كَبِدًا" نداء يشير إلى المتفجّع عليه، خلافًا لعنصر ياء النداء في البيت الثالث المراد به استحضارُ مدلول، وهو هنا رجاء رحمةِ الله وعنايته بالمنادى المحزون له والمتفجّع عليه، فهو وحدة لسانية ذات وظيفة نحوية متميزة عما عداه من وحدات نحوية أخرى، وله هنا وظيفة واحدة لا وظيفتان أو أكثر كما رأينا في مطلع قصيدة النابغة (يا دار مية)، أو كما جاء:

يَـا عديـًا لقلْبِـكَ المهتـاجِ — أنْ عفا رسْـمُ منـزلٍ بالنِّبـاجِ

وحقُّ العربية فيه أيضًا "يا عديُّ"، وهذا مثل قولهم: "يَا زَيْدُ والحارثُ" فالرفع بَيِّنٌ، والنصب بإضمار فعل مثل "ادْعُ" أي يا زيدُ ادْعُ حارثًا، وفيه احتمال ثالث،...

لو كان الأمر يتعلق بالوحدات الدالة ذات التمفصل المزدوج (فونيم، مونيم) لقلنا إن "وَا كبدَا" تتألف من ست وحدات صوتية تمايزية غير دالة (فونيمات)، ومن ثلاث وحدات دُنْيا دالة (وا+ كبد+ ا)، و"وامعتصماه!" مؤلّفة من عشر فونيمات، وخمس وحدات دالة مع أخذ "!" بعين الاعتبار، لأن علامة التعجب هذه دالّ إشاري لا يخلو من مداليل متباينة:

- "!" ← خطر، أو حذار، لدى سائق سيارة،...
- "!" ← علامة تعجب لدى تلميذ مدرسة:

لقد أقبل الربيع يختال ضاحكًا — من الحسن حتى كاد أن يتكلما!

فيا عجبًا حتّى كُلَيْبٍ تَسُبُّنِي — كأنَّ أبَاها نَهْشَلٌ أوْ مُجَاشِعُ!

- "!" ← حركة بارعة عند لاعب الشطرنج.
- "!" ← هي "عَامِلِيٌّ Facturial"، لدى دارس الرياضيات.

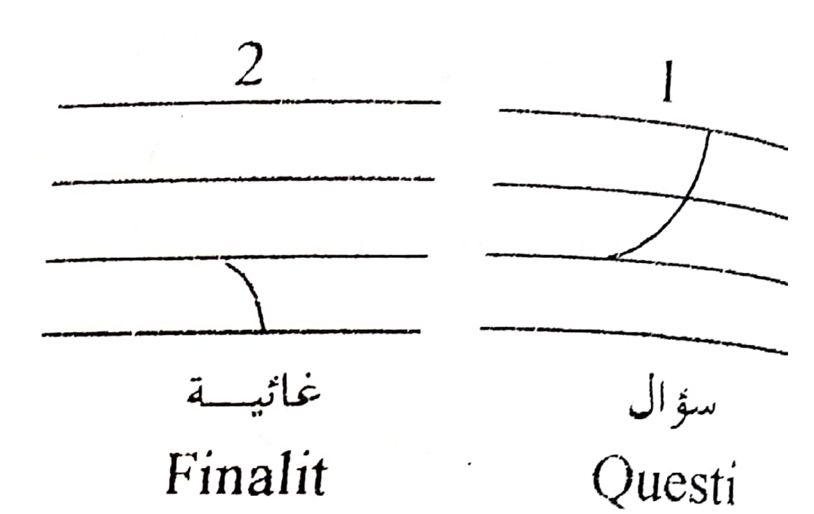
التحليل الوظيفي "الفَوْمَقِي"

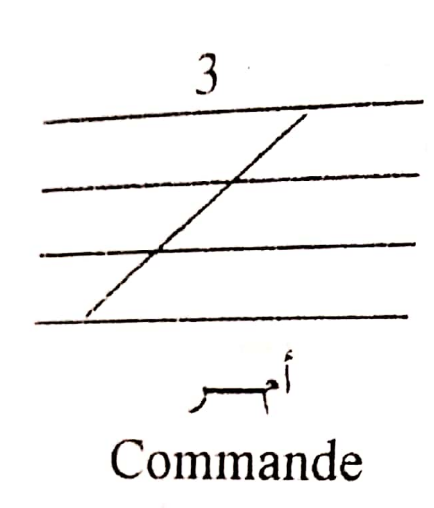
غير أن هذا التحليل أنسب أو أقرب إلى ما يُسمّى فوق مقطعي أو وحدة صوتية فوق الحرف Suprasegmental منه إلى التحليل اللغوي التواصلي، لأنه ميدان نُطْقِيٌّ Prosodique خاص بنطق كلمات نطقًا

"فَوْمَقِيًّا"[1] أي فوق مقطعي، لأن النطق "القَوْمَقِيّ" حدث صوتي لا يتقيّد بالتمفصل المزدوج راصدًا أو معيّنًا عنصرًا صوتيًا لخطاب أعلى من الفونيم أو الوحدة الصوتية، ولذلك يبدو أن أندري مارتيني شعر بهشاشة نظريته عندما قال: "كل ما يدخل في التقطيع المونيماتيكي[2] والفونيماتيكي[3] يمكن أن يقال له نُطقي Prosodique، بحيث إنّ المصطلح الأمريكي "فَوْمَقي Supra- Segmental" تسمية مقبولة"[4].

إن المتكلم منّا قد يلجأ أحيانًا أو غالبًا (دون شعور طبعًا وفي أكثر الحالات)، خاصة في خطابه المستمد من لغته الطبيعية أو لغة الأم إلى عناصر يشركها في تواصله لإنشاء جمل أو ملفوظات هي فَوْمَقِيّة (فوق مقطعيّة) في حالة ما إذا كانت لا تتطابق مع أي مقطع من السلسلة الكلامية غير مقدّمةٍ نتيجةً لذلك أيّ إمكان للتحليل الصوتي، ويتعلق الأمر بحالة كل الظواهر النطقية الغريبة عن التمفصل المزدوج، ولكنها لا تنعزل عن الخطاب مثل الإيقاع، واتساق الأصوات، والحِدة والشِّدَّة، والمدَّة، والنبرة، والنَّغْمة، والتنغيم:

1)- نحت لجملة "فوق مقطعي" فوق (فوْ)+ مقطع (مقـ)= فوْمقة.
2)- Monématique أصغر عنصر دالّ، كما هو الحال في "غ" من "وعى".
3)- Phonématique أصغر عنصر صوتي ممكن غير دالّ.
4)- Dictionnaire de didactique des langues, P : 538.





ففي الملفوظات التالية:

(أ) الجو جميل.

(ب) دقت الساعة.

(ج) كم الساعة؟

(د) تعال حينًا.

عدة احتمالات:

أ-1: سؤال ← الجو جميل؟

أ-2: تأكيد ← الجو جميل.

أ-3: بما أن الزمن لا يخضع للإرادة، فإننا لا نستطيع أن نتصور هذا التأليف إلا بإحالته على عمل خيالي (حديث بخصوص سيناريو فيلم مثلاً).

ب-1: سؤال.

ب-2: تأكيد.

ب-3: تحت هذا الشكل يوصي الملفوظ بفعل ما كان متوقعًا صنعه في هذه الساعة.

ج-1: المتكلّم يكرّر السؤال: "كم الساعة؟" "ماذا قلت؟".

ج-2: سؤال.

ج-3: سؤال، لكن مع فارق عدواني.

د-1: مثل ج-1.

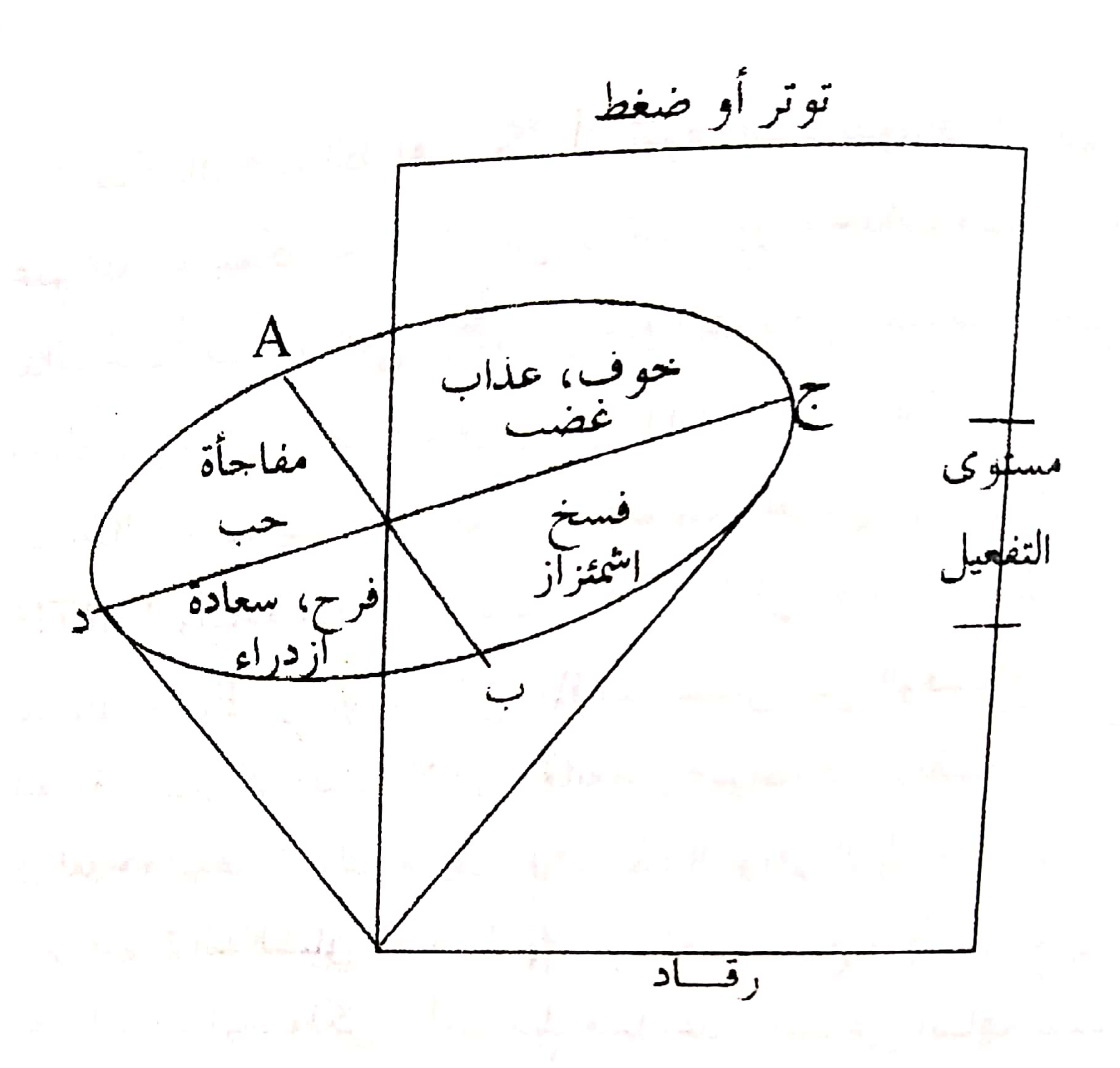
د-2: يحافظ الملفوظ على لهجته (قيمته) الأمرية، لكن كما نتوقع بتغير صاعد في حدة الصوت، إلى درجة نتوقع معها أن الناطق لم يعد قادرا على رفع درجة صوت أكثر مما رفع.

د-3: هنا أيضا حدة الصوت غير "عادية"، يمكن أن تقابل وضعًا مؤدّبًا، والأمثلة في أ-3، ج-2، د-3 تظهر أن تنغيما محايدًا يأخذ في حسبانه معنى الملفوظ والقيمة الانفعالية للكلمات التي تؤول إلى أن تكون تنغيما تعبيريًّا.

ومن الدارسين اللسانيين من حاول أن يرسم شكلا مستطيلا يتخلل أحد طوليّه شكل آخر على هيئة مخروط، حاول من خلاله أو يوضّح ثلاثة أبعاد لتصنيف التنغيم[1]:

---

1)- يراجع: Dictionnaire de dédactique des langues, P : 297.



حيـــث:

أ: لَفْتُ انتباه Attention ← A : Attention.

ب: رفـــض ← R : Rejet.

ج: ســـرور ← P : Plaisir.

د: تكـديـــر ← D : Déplaisir.

علمًا بأن هذه الظواهر يمكن أن تقوم أحيانًا بدور دلالي مهم، لكن علم اللغة لم يتمكن حتى الآن من أن يحلّلها إلى وحدات متميزة أو قائمة بذاتها تحليلاً منفصلاً على الرغم من محاولات بعض اللسانيين لتحليل إيقاع الخطاب واتساق الأصوات فيه إلى وحدات متتالية قابلة للعزل تمامًا مثلما هو الحال في الفونيمات في حقل الفونولوجيا، حتى وإن كانت فرث FIRTH وأتباعه يقطّعون السلسلة الكلامية إلى أصوات ونطق عروضي Prosodique، وهذه التحاليل عندهم تتضمّن كل الوقائع الصوتية المعتبرة كمميّز للوحدات الأكثر رحابة من صوت أدنى (مقطع، جملة، الخ) في لغة مسلّم بها[1]، ومما يُؤسف له أن هذه الظواهر النطقية و"الفومقية" لا يخلو منها تراثنا اللساني العربي القديم من ناحية التبليغ والأداء، بما في ذلك القراءات القرآنية، ولكن لا أحد منا، فيما أعلم، استرعى انتباهه بصورة علمية ومنهجية هذا الموضوع حتى الآن، ما عدا لمحات وإلماعات هنا وهناك تحتاج إلى تركيز وجمع وتحليل.

ولما كانت السمة "الفومقية" أو النطقية كما في التقطيعات العروضية أو القراءات الشعرية العمودية –خاصة– مميزة صوتية تحدّد أو تعيّن مقطعًا أكثر طولاً من الفونيم:

---

1)- يراجع: Dictionnaire de la linguistique, P : 271-274 et 312 .G.MOUNIN

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل(ي)   بسقط اللوى بين الدخول فحومل(ي)

أو كما في قراءتنا القرآنية التي تعلمناها على شيخنا الوالد-رحمه الله-: "سوءٌ عليهمُ(ـــو) آنْذَرْتَهمُ (ـــو) أم لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ" (بعدم تحقيق الهمز على الواو)، فإن جاكبسون، كما سبق أن ألمحنا، ذكر أن الوظيفة الانفعالية الجلية في حروف التعجب تميز إلى حد ما كل تواصلاتنا في المستويات الصوتية والنحوية والمعجمية[1].

السواحل اللاممكنة وظيفيًا للغة

ويقصد مما ذكره أعلاه أن اللغة تحمل في طياها وأحشائها معلومات منقولة من باث إلى متلقٍّ لا ينحصر فهمها وتلقيها على المظهر الإدراكي المتواضع عليه سلفًا، لأن الباث قد يخرج طوعًا أو كرهًا عن طوره اللساني [illegible]وف، خاصة إذا ما أعوزته اللغة الصوتية، ويلجأ إلى سمات وظواهر [illegible] مقية، وليس المجاز إلا نمودجا حيًا لحاجة اللغة العادية إلى ظواهر [illegible]دعمها، فالباث كثيرًا ما يجبر آليا إلى توظيف عناصر للتعبير بها إلى السخرية أو الغضب أو التعبير أو...، كقول الفرزدق السابق:

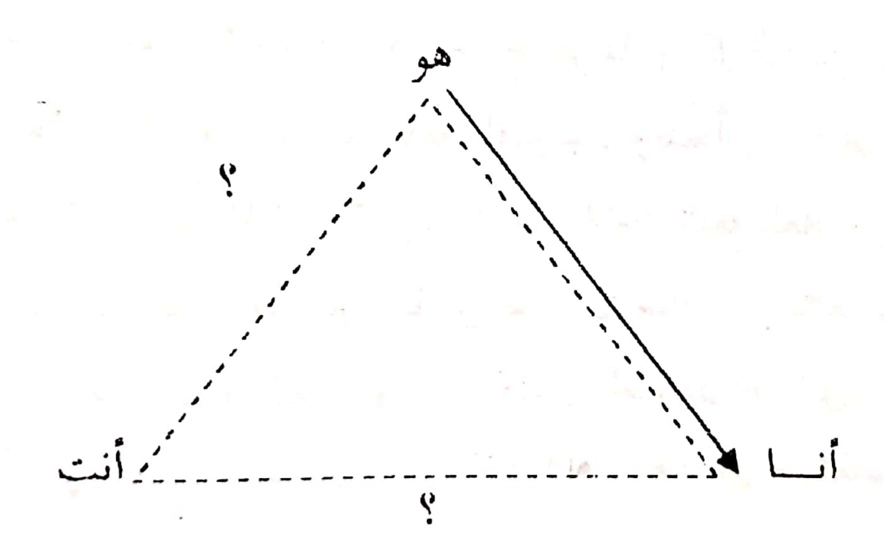
فيَا عجبًا حتى كليبٌ تسبُّني   كأن أباها نهشلٌ أو مُجَاشِعُ

1)- يراجع: R.JAKOBSON. Essais de linguistique générale, P: 215

أو كقول الحطيئة:

دَعِ المكارمَ لا ترحَلْ لبُغيتِها واقْعُدْ، فإنك أنت الطاعم الكاسي

أو كما قال حسان لعلي رضي الله عنهما وقد سأله (عمر) لإقامة الحجة على الشاعر: "ذَرَقَ عَليه" (أي على الزبرقان بن بدر)(1)، والّذي لاشك فيه أن الحطيئة كان يمتصّ أصوات كلماته امتصاصًا شديدًا مع شدة وحدة وتنغيم ووقف واستئناف،... وهذا النوع من التبليغ لا يخلو من غرابة دون ضبابية، وإبداع يتجاوز بُعْدَ ما في الإمكان، لأن المتكلم يرسل مرسلته، وكأن أحدًا غيره يخاطبه، أو كأنما يتواصل مع نفسه، وهو يريد تبليغ المرسلة إلى غيره، إذ من غير المألوف أن يوجّه الخطاب من ضمير إلى الضمير بعينه:



1)- انظر: طبقات الشعراء: 1/ص: 116 لابن سلام، والذَّرْق ما يلقيه الطائر من ذي بطنه كالتغوّط من الإنسان، وأذرق لغة.

كأن شخصًا غائبًا يتكلم (هو) ويقول للمتكلم (أنا): كذا، وكذا،...

البيت، ومن ثم فلا وجود لاتصال بين:

هو ⇄ أنت، ولا بين:

هو ⇄ أنا، ولا بين:

أنا ⇄ أنـــت.

لكن بأي خطاب تكلم؟ أو أيَّ تبليغ استعمل؟ إن القطب الثلاثـــي، فيما يبدو، لا يشمل هذا التبليغ، ونحن نعلم أن وظائف الضمائر الثلاثة:

أنـــا ← تعبيري.

أنت ← تحريضي.

هو ← إعـــلامي.

وإذا كان لا مناص لنا أن نحدد وظيفة هذا التبليغ، فإننا نميل إلى القول بأنها تعبيرية في بنيتها السطحية، وتحريضية في بنيتها العميقة، والبنية الثانية هي التي حدث منها السب والقذف، وهي التي سجنت الشاعر، وكـــان جاكبسون صرّح أن جمل الطلب أو الحض تختلف عن الجمل التصـــريحية اختلافًا أساسيًا، فهذه الأخيرة ممكن إخضاعها إلى اختبار صوابي، في حين أن الأولى غير ممكن فيها ذلك، فبيت الحطيئة يتزاحم بثلاث جمل طلبية:

- دع المكارم، لا ترحلْ لبغيتها، واقعد.

ونحن كملتقطين لخِطابه لا نستطيع، بل ليس من حقنا، أن نحكم على كلامه ولو تساؤلاً: "أصحيح ما تفوّه به الرجل أم لا؟"، لكنها جمل ليست

كأي جمل، فصاحبها تلاعب بضميرين تلاعبًا داخليًا لا ينساق في أي خطاب كان:

- دع المكارم:

جعل من نفسه هنا مُعبّرًا ومخاطبًا، وجعل الوظيفة تتحرك وتذهب وتعود متمحورة حول نفسه، فالوظيفة ازدواجية: معبرة وطلبية.

- لا ترحل لبغيتها:

من النادر أن يُنهى شخص ليطلب منه أمر، وهو غائب لا حول له ولا قوة، ولكن المتكلم هنا خرق المألوف خرقًا مضاعفًا: نَهيٌ أو منع حصول شيء غائب عنه، ومخاطبته لشيء لا يعقل إمعانًا في إيذاء المشار إليه، وإعلاء من شأن مضيفه.

- واقعد:

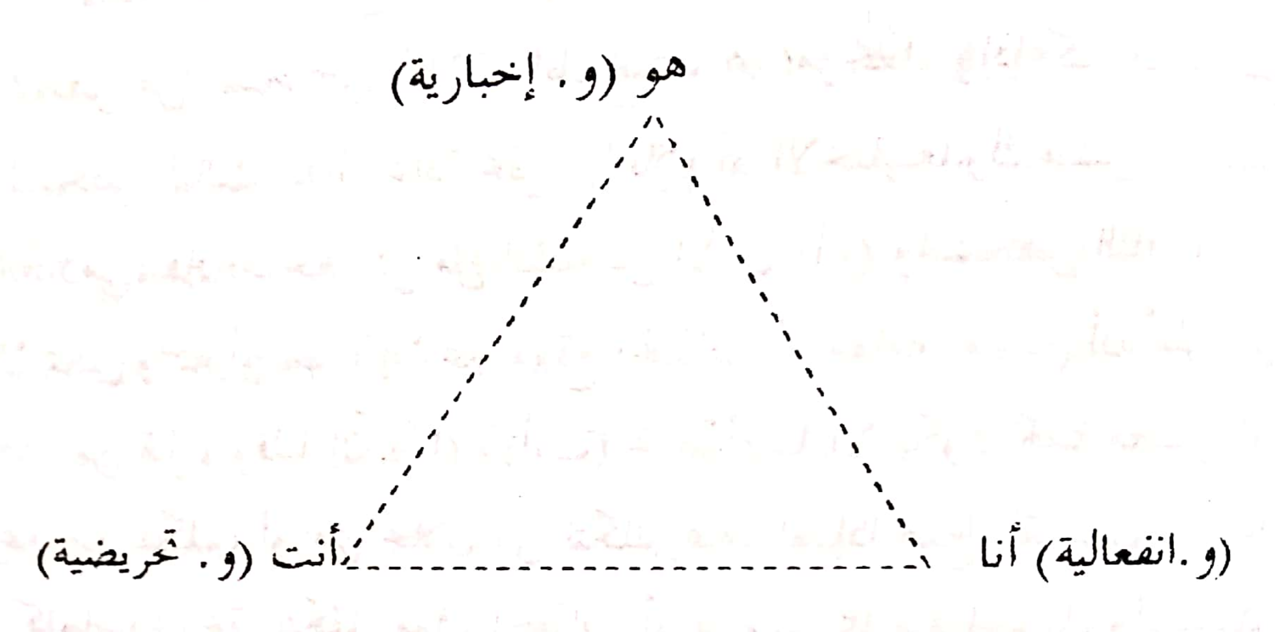
إن الأمر بالقعود ذمّ أكثر مما هو مدح، كيف لا وأن الشاعر نفسه قال ذات مرة:

أطوِّف ما أطوِّف ثم آوي إلى بيتٍ قَعيدتُه لَكَاعِ؟

وما هذه القعيدة إلا ربة البيت، وأما الرجل فلا يستّحبّ منه ذلك، ومع ذلك يحرّض نفسه تحريضًا على ألاّ يبْرح مكررًا الضمير نفسه (أنت) مباشرة:

- فإنك أنت الطاعم الكاسي.

فالرجل بعد خطاب تحريضي يسكن ويهدأ، وينتقل من وظيفة تعبيرية تحريضية أو طلبية إلى وظيفة إخبارية:



فهذا الخطاب الثالوثي يكوّن نظام الشخص أي المرسل أو المرسل إليه أو المرجع، فالشخصان الأولان (أنا، أنت) يتعهدان بعلاقـة ذات طبيعـة حصرية ترجع إلى التلفظ، وتقصي في الوقت نفسه الشـخص الثالـث، ولذلك نوّهنا بتركيب: "لاَ تَرْحَلْ لبغيتها" أكثر من غيره كأنما يمثل وظيفة خارج النظام أو نظامًا خارج ماهو متعارف عليه في أية وظيفة تقليديـة، لأن الشخص الثالث ينتمي إلى الملفوظ لا إلى التلفّظ، أي على ما قيل، لا إلى ما يقال، أو سوف يقال، والشخص الثالث (المرجع) ممكـن وسْـمُه وتَعْلِيمُه عبر السياق الكلامي.

المرجع والضمائر

وعلى ذكر المرجع Le Répérent، فينبغي أن نذكّر أن لكل شخص من الشخوص الثلاثة (أنا، أنت، هو)مرجعًا، وإذا كان مرجع الشخص الثالث الدالّ عادة على الإعلام أو الإخبار يدرك من السياق الكلامي، فإن مرجع كل من الشخص الأول (أنا) والشخص الثاني (أنت) لا يمكن وسمه أو تعيينه إلا عبر موقع الخطاب أو مقامه، وسبق أن أشرنا إلى هذا من قبل، وقلنا إنّ (أنا) و(أنت) خاصيّتهما ألا يكون لهما معنى إلا عبر من يتكلم، أو من خلال من نتكلم عنه، أو إذا صح القول إنهما "كلمات فارغة" يتكفل موقع الخطاب أو مناسبته بملء فراغهما، ولذلك سمي (أنا) و(أنت) وُصْلات الخطاب Embrayeurs du discours أو جهاز ربط، مثلهما مثل: هنا، هناك، الآن،...

الواصلات الكلامية والخطاب

وعلى ذكر الوصلات أو الواصلات (وهذه أفضل)، فإنها تشكّل قسمًا خاصًا من الوحدات النحوية ممكن تأويلها فقط تبعًا لموقع أو وضع الخطاب، وفي هذا المقام صرّح جاكبسون: "كل سَنَن لساني يشمل قسمًا خاصًا من الوحدات النحوية التي يمكن تسميتها الواصلات، ولا يمكن تعريف الدلالة العامة لواصلة خارج إحالة إلى مرسلة.

أما الطبيعة السيميولوجية للواصلات فقد سبق أن فُحِصَت من قبل A.W.BURKS في دراسة له حول تصنيف بيرس PEIRCE

للعلامات والرموز... فبالنسبة لبيرس أن رمزًا (مثلاً، كلمة "أحمر") مرتبطة بالغرض المشخّص بوساطة قاعدة متّفق عليها، بينما الدالّ على شيء INDEX... هو في علاقة وجود مع الغرض الّذي يمثّله، وهكذا، فإن الواصلات تؤلّف الوظيفتين وتنتمي إلى مرتبة رموز-دالّ على شيء، والمثال المذهل الموضّح من بوركس BURKS أن الضمير الشخصي "أنا" يعيّن الشخص الّذي يلفظ "أنا" "Je" Désigne la personne qui "Je" énonce"، فمن جهة علامة "أنا" لا يمكنه أن يقدم موضوعه دون أن يكون مربوطًا بقاعدة القافية، وفي أنظمة رموزٍ مختلفةٍ المعنى نفْسُه يعزى لمجموعة ألفاظ منتظمة مختلفة، كما هو الحال "Je"، "EGO" (أنا، ذات)، "ICH" (   )، "i"، وإذًا، فـ"أنا" رمز، ومن جهة أخرى، علامة "أنا" لا يمكن أن تمثل موضوعها إذا لم تكن في علاقة وجودية مع هذا الموضوع، فكلمة "أنا" المشيرة إلى المتلفظ هي في علاقة وجودية مع التلفظ، وعليه [illegible] مثل دالّ على شيء IDEXE"[1].

[illegible] جاكبسون في موضع آخر أن الشيء الوحيد الّذي يميّز الواصلات عن كل المؤلّفات الأخرى أن نحيل إجباريًا إلى مرحلة، فإذا دَلَلْنَا على المرسِل للمرسلة عمومًا، فإنه يحيل بالضرورة على مرسل خاص،

1)- Essais de linguistique générale, R,JAKOBSON. P : 178-179

فكلمة "أنا" يُعيّن حسب الحالات أشخاصًا مختلفين، ولهذا السبب يأخذ دائمًا دلالة جديدة"[1].

وبشكل عام، فإن الواصلات:

- تحدّد الملاءمة أو التوفيق للملفوظ أو القول أو الخطاب الّذي يتنفظه مرسل (أنا، هنا، ثَـمَّتَ،...).

- تضطلع بإرسال إلى مرسل إليه (أنت)، مراجع حاضرة في الزمان والمكان اللّذين يُنْجزُ فيهما الخطاب، غير أن هذه المراجع تابعة لمن يتكلم (المرسل) ولمن يُوجَّه له الخطاب (المرسل إليه) أو شخص ثالث ou d'untiers، أو تحيل إلى وقت فعل التبليغ (الآن، اليوم، غدًا، أزمنة الفعل المختلفة، أمس،...)، ولعل هذا ما جعل اللساني الفرنسي بنفنيست يصرّح أن الواصلات تكوّنُ دخولاً عابرًا واحتياجًا للخطاب داخل اللغة، باعتبارها المكوّنات أو المؤلّفات الوحيدة للسَّنَن غير قابلة للتأويل خارج الملفوظات التي تظهر فيها[2].

إن هذا الواصل الرابط ذا الأصل الانجليزي SHIFTER (شـيفتَرْ) كان استعاره رومان جاكبسون من جسبرسن JESPERSEN الّـذي كان يعرّف هذا المصطلح بأنه صنف من كلمات يتنوع معناها مع المقام، ولكن جاكبسون يرى أن كل سنن لساني يشمل صنفًا خاصًا من

---

1)- Dictionnaire de didactique des langues, P : 179.

2)- يراجع المرجع السابق، ص: 180.

الوحدات النحوية لا المعجمية كما عند جسبرسن، لأن تعريف واصل لا يمكن أن يَحْصُل خارج إحالة على مرسلة "وبعبارة أخرى، فإن هذه الوحدات للسنن تَصل المرسلة بالمقام: الضمير هو تارة رمز SYMBOLE أي علامة لسانية،ومرة أَمَارة INDEX (عند جاكبسون)[1].

ولخّص دُبّوَا DUBOIS وفريقه هذه الإشكالية بالاعتماد على مختلف النظريات اللسانية التي تعاطت عن قرب هذا الموضوع، وذهبوا إلى أن الواصلات صنف من كلمات، كما سبق أن أشرنا، تتنوع بتنوع المقام (لكل مقام مقال، لكل حدث حديث)، وهذه الكلمات المقتحمة داخل اللغة بردًا أو سلامًا والتي ليس إحالة خاصة في اللغة لا تستقبل مرجعًا إلا عندما تكون مُدْرجة في مرسلة، مثال ذلك أن كلمات مثل: أب، أمّ، البارحة، هنا، لا تأخذ قيمتها إلا بإحالة على متكلم مرسل Locuteur Emetteur وبوساطة زمن التلفظ.

ويردف المصدر ذاته أنه لا يمكننا أن نعرّف الواصلات بمعيار وحيد متعلق بغياب الدلالة العامة، مثال ذلك أن كل نوع من الروابط المنطقية المستعملة في اللغات الطبيعية (لكنْ، إذًا، والحال أنّ) لا يوجد له إطلاقًا في الخطاب القيمة المفهومية الخاصة كتلك التي توجد في الروابط المنطقية

1)- Dictionnaire de la linguistique, P : 123 GEORGES MOUNIN.

المستخدمة للدلالة في كل مرة على علاقة خاصة بين تصورين أو قضيتين. فالمعيار الأساس إذًا يكمن في "الإحالة الإلزامية على الخطاب"[1]. وتسوق إحدى اللسانيات الفرنسيات (مارينا ياغيلو) مثالا قصصيا طريفا على الواصلات، فهي بعد إشارتها بأن ظروف الزمن والمكان التي لا يمكن وسْمها أو تعيينها إلا نسبة لوقت التلفظ بصورة متحركة غير نهائية، تقول: "عندما تقدم الملكة إلى أليس ALICE عرضًا لتصير وصيفتها تبادلها مقابل ذلك المربّى مرة في كل يومين، سوى أن أليس رفضت العرض مدّعية أنها لا تريد المربى اليوم، لكن الملكة أجابت لن تحصلي عليه حتى لو أردته، لأن القاعدة تشترط: مربّى الأمس مُربّى الغد، لَكِن أبدًا مربّى اليوم"، "لكننا سنفضي يومًا أو آخر إلى مربّى اليوم" قالت أليس هذا محتجّة، وهي تعتقد بفضيلة الواصلات، والحالة هذه بالضبط أن القاعدة هي التي تريد لِلْغدِ أن يصير اليوم، ولليوم أن يضحي غدًا، وبالمثل فإن أنا يصير أنت، وأنت يضحي أنا"[2].

1)- يراجع: J.DUBOIS 184-185 : Dictionnaire de linguistique, P.
2)- Pour Comprendre la linguistique, P : 21-22 MRINAYA GUELLO.

الضميران الحقيقيّـــان

ويؤكد اللّسانيون أن الضميرين الشخصيين أنـــا وأنـــت وحـــدهما شخصان حقيقيان، في حين أن ضمير الشخص الثالث (هو) غير شخصي، لأنه ليس أكثر من موضوع خطاب سواء كان إنسانًا أو خياليًا ملموسًا أو مجردًا... ولهذا السبب، فإن أية كلمة يمكن أن تَصْـــلُح أو تقـــوم مقـــام "الشخص الثالث"،وليس الضمير الّذي يقـــال لـــه الشـــخص الثالـــث وحسب[1].

إن الشخص الأول والثاني (أنا، أنت) لا يُفصح عنـــهما إجباريًـــا في الملفوظ، ولكن يمكن أن يعاد إدارجهما مجددًا دائمًا بغية توضيح[2]:

- من قال هذا؟
- القائل أنا.
- تتكلم مع من؟
- معك.

كل ملفوظ أو مَقُول يستلزم المقام لتلفظ:

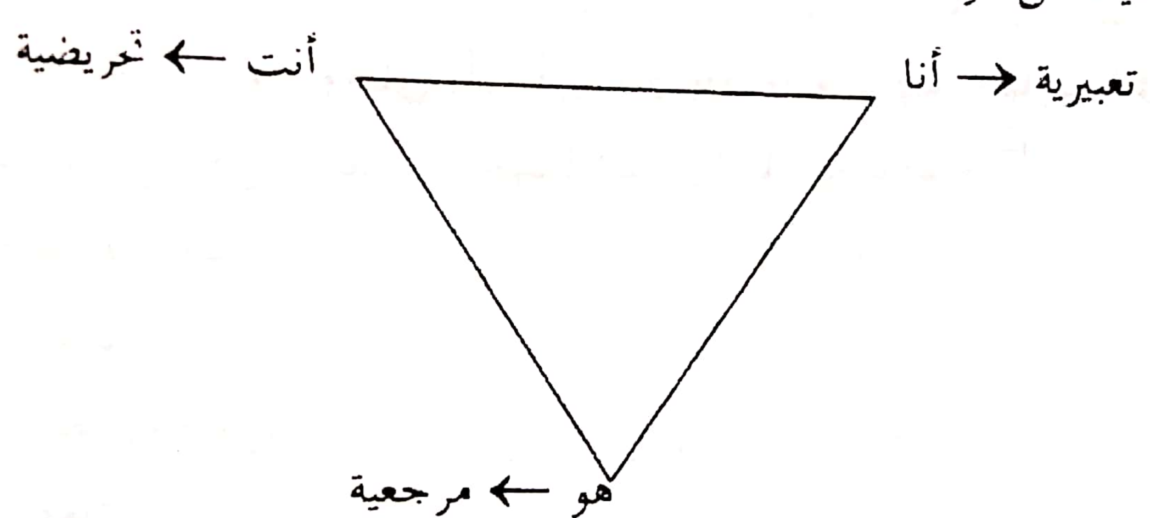
- أقول إن... أرى أنّ... أتوجّه إلى...

---

1)- يتابع المرجع السابق، ص: 22.

2)- المرجع نفسه، ص: 22.

وحين يتضمن الملفوظ أحيانًا الشخص الثالث، فإنه يجب أن يذكر بوضوح في الملفوظ بأشكال متغيرة للغاية: ضمائر شخصية أو أسماء إشارات والتي تميز، كما في العربية، بين المذكر والمؤنث، وبين الجامد وغير الجامد، والإنساني وغير الإنساني، والقريب والبعيد،... تصريف فعل عندما ينعدم الضمير، أسماء أعلام، أسماء عامة،... وهذا هو المقصود من المثلث الّذي تمثل قممه الثلاث نظام الشخوص الثلاثة، بحيث كل قمة تناظر وظيفة من الوظائف الثلاث: التعبيرية، والتحريضية، والمرجعية:



وهذه الأقطاب الثلاثة التي يقابل كل واحد منها وظيفة من الوظائف الثلاث موجودة في ثلاثة أجناس شعرية: غنائية، ورثائية، وملحمية.

الفصل الثالث: الآلة الوظيفية في اللغة؟

كيف تشتغل الآلة الوظيفية في اللغة؟

يُزمع اللسانيون المحدثون أن لفظة "الوظيفة" لسانيًا لفظة تَداولهَا مؤسسو حلقة براغ Cercle de Prague، ولا تزال مستعملة إلى عهدنا هذا، وتشير اللفظة بمعناها العام والواسع إلى كل استعمال لغوي يتخذ دلالات متنوعة جدًا، فعلى مستوى تحليل جملة، فإن مستوى التحليل يستند إلى علاقات عناصر الجملة فيما بينها:

أمِنَ آلِ مَيَّة رَائِحٌ أَوْ مُغْتَدِ عَجْلاَنَ ذَا زَادٍ وغَيْرَ مُزَوَّدِ؟

فالشاعر لا يخاطب نفسه شكًا في غُدُوّه ورواحه، بل تساءل كالمُستَثْبِت، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى؟﴾، وكمطلع معلقة عنترة:

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهُّم؟

أو كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ من الدَّهْرِ﴾ حتى وإن اختلف الوجهان، لأن الاستفهام في التركيبين الأولين الشعري والقرآني يفيد النفي، كقول جرير:

أَلَسْتُمْ خَيرَ من رَكِبَ المطَايَا وأَندى العَالمين بُطُونَ رَاحِ؟

وأما التركيبان الأخيران فاستفهامهما تحقيق بمعنى "قد".

إن العناصر اللسانية تتنوع وظيفيًا بتنوع استعمالاتها بوساطة علاقاتها الحصرية فيما بينها، فهي قد تتشابه وظائفها هنا، وتتباين هناك، ولكنها لا تتجاوز نَفْسها فيما تتماثل فيه هنا أو تختلف فيه هناك.

الوظيفة الأسلوبية لدى ريفاتو

ولما كان العنصر اللساني يتمرد على نظامه اللساني التقليدي العام، لينتقل مما هو مألوف (الحقيقة) إلى ما هو غير معهود ولا مطروق (المجاز مثلاً)، فإن ميشال ريفاتر M.RIFFATERRE استحدث وظيفة أخرى علاوة على الست الجاكبسونية سماها "الوظيفة الأسلوبية) أي Fonction Esthétique، وهذه التسمية تطلق العنان للغة حتى لا يقتصر الحال على تصوّر حدود ضيقة للفن الكلامي بدل توسّعه ليشمل كل النشاطات الكلامية من مرسلة شفهية أو خطية نثرية أو شعرية[1].

إن ميشال ريفاتير وسّع التصور الّذي أضفاه جاكبسون على الوظيفة الشعرية بتصور آخر، كما أشرنا، دعاه الوظيفة الشكلية أو الأسلوبية مقترحًا تعريف أدبية جملة بناء على ثلاثة شروط[2]:

1)- يراجع: Dictionnaire de la linguistique, P : 142-143 .G.MONIN.

2)- Linguistique et poétique, P : 43-44 Daniel DELAS et Jacques FILLIOLLET.

1)- تحدُّد تضافريّ: Surdétermination قاصدًا بهذا المصطلح أنّ العلاقات بين عناصر الجملة محدَّدة تضافريًا بوساطة نسخ Calque بينصيّ Inertextuel أو محاكاة لغوية واستقطاب دلالي أو جعْل نظام وصفي ينتقل لطور الحقيقة.

2)- تحويل Conversion، يقصد به هنا أن الجملة الأدبية وحدة عناصرها الدالة كلها معرضة للتأثير من خلال التعديل لعامل واحد.

3)- التوسيع Expansion، ويشير به إلى أن التوليد L'engendrement يتمّ عبْر تحويل لدافع جليّ بدافع مضمر .Explicite

والإشارة إلى الوظيفة الجمالية لا تقصي إغفال الوظيفة الأسلوبية، لأن هذه الأخيرة تضطلع كذلك بموضوع دراسة التنظيم الشكلي الوارد في المرسلة Le Message، ولذلك تختلف عن الوظيفة الشعرية التي تعدّ ءا من حُزمة الوظائف الست للغة عند جاكبسون، فهي تارة مهيمنة في المر[illegible] الشعرية، ومرة مساعِدة أو مداركة Subsidiaire كما يُلاحظ ذلك في المرسلة التلقائية، لأن التصور عند جاكبسون يقتصر فقط على الفن الكلامي L'art Verbal ويقوم على المسلّمة أو الفرضية الأولى التي تصنع النص كشيء مطلق جماليته تتبع كليًا الإعداد أو التكوُّن لنصه، مع أن الوظيفة الشعرية ذات المبدأ الشهير "إلقاء مبدأ المعادلة من محور الانتقاء

على محو التأليف"[1]، تلتبس بهذا الإعداد، لأن ما يكوّن مرسلة ليس مجرد تبليغ بل غاية في ذاته[2].

للغة وظيفة واحدة؟

وهناك موجة أخرى لدى لسانيين أمثال دونيز DENISE وفريدريك فرانسوا Frédéric François ترى من وجهة نظرها أن اللغة في واقعها الأكثر التحامًا نظريًا ليس لها إلا وظيفة واحدة، هي وظيفة التبليغ التي نجدها في كل الملفوظات المتلفّظ بها، وما يسمّيه جاكبسون وظيفة شعرية، وتعبيرية، وندائية، وإقامة الاتصال Phatique، وما فوق اللغة Métalinguistique، ومرجعية لا يطابق إلا استعمالات للّغة تسود بين بين وفقًا للمرسلات[3].

للغة وظائف متباينة

والواقع أن جاكبسون لم يقصر المرسلات اللغوية خطية كانت أم شفهية، نثرية كانت أم شعرية على الست وظائف، ولكن يبدو أن ترسيمة التبليغ السداسية التي استوحاها من ترسيمة دي سوسور الناقصة، هي التي

1)- ESSAIS de Linguistique, P 220 R.JAKOBSON.

2)- يراجع: Dictionnaire de linguistique, P : 143 G.MOUNIN.

3)- ينظر: المرجع السابق، ص: 143.

ورّطته بثقة كبرى في هذا التحديد، ولو اجتزأ بقوله: "يجب أن تدرس اللغة في كل التنوعات لوظائفها"[1]، تاركًا الحكم مفتوحًا للإبداع الّذي لا نهاية له، لكان أليق للسانيات النص والتبليغ، ولكن الرجل بعد أن يورد عوامل التبليغ الستة التي يراها غير قابلة للتجزّؤ:

3- سيــاق

1- مرسل .... 2- مرسل إليه

4- مرسلــة

5- اتصــال

6- سنــن

يصرّح مباشرة "أن كل واحد من هذه العوامل يعطي ميلادًا لوظيفة لسانية مختلفة، ولْنَقُلْ على الفور إذا كنا نميّز هكذا المظاهر الستة الجوهرية في اللغة، فإنه سيكون من الصعب إيجاد مرسلات تتوافر وظيفة واحدة فقط، ذلك أن تنوع مرسلات لا يوجد في احتكار وظيفة أو أخرى، بل في تباين التدرّجية فيما بينها، لأن البنية الكلامية لمرسلة تخضع قبل أي شيء إلى الوظيفة الغالية Prédominante"[2].

وأما الوظائف الست الناتجة عن أركان التبليغ الستة أعلاه، فهي:

---

1)- ESSAIS de Linguistique générale, P : 213.

2)- المرجع السابق، ص: 214.

3- مـــرجعيـــة

1- تعبيرية ....   4- شعــريــة   .... 2- ندائية

5- إقامة الاتصال

6- ما فوق التبليغ

وذكر جاكبسون أن النموذج التقليدي للغة الموضّح خاصة من قبل بوهلر BUHLER كان ينحصر في الوظائف الثلاث: التعبيرية (أو الانفعالية)، والندائية (أو الطلبية أو التحريضية)، والمرجعية مردفًا أن القمم الثلاث لهذا النموذج المثلثيّ مطابقة للشخص الأول، إنه المرسل، والشخص الثاني، إنه المرسل إليه، والشخص الثالث، إنه "أحدهم أو بعضهم"، أو "شيء"، وبعبارة أصحّ ما تتكلم عنه.

الوظيفة الأساس للغة التبليغ

وإذا كنا لسنا من أنصار من يرون أن اشتغال اللغة لا يعدو وظيفة واحدة، حتى وإن كنا نتفق دون تحفظ مع من يرون أو وظيفة اللغة الأساس التبليغ، ولا من أنصار مَنْ يَقْصُرُونها على الستّ وظائف، فإننا نُكبر إكبارًا ما جاء لدى لسانيين في اللغة "اللغة- الموضوع" المتكلمة عن الأغراض، و"اللغة الواصفة" (أو اللغة الشارحة أو التقعيدية) Métalangage المتحدثة عن اللغة ذاتها "غير أن اللغة الواصفة ليست أداة

علمية ضرورية فقط لاستعمال مناطقة ولسانيين، بل تلعب أيضا دورًا مهمًا في لغتنا اليومية"[1].

أجل، لسنا من أنصار هؤلاء ولا هؤلاء، لأنه لا توجد لغة لا تسمح لها بالمجاز والصور والإبداع غير المتوقع لتراكيب لم يسبق لمتكلم يتعاطاها أن استعملها، والبلاغيون المحدثون يدركون أن الصور المجازية تنحدر من خروقات دلالية، مما يجعل التعاقد القبلي بين الدال والمدلول تعاقدًا كلما خرج من حقيقته طالما أنه شحن شحنًا بعديًا بدلالة تالية، فلغتنا تتعدد وظائفها بتعدد استعمالاتها، وتتغير بتغيراتها من متكلم إلى آخر، ومن فترة أفقية إلى فترة عمودية، وكان أندري مارتني يرى أنّ كل وحدة ملفوظ خاضعة لضغطين متضادين: ضغط (تركيبي أو أفقي) في السلسلة الكلامية الممارَسَة بوساطة الوحدات المجاورة، وضغط (استبدالي أو عمودي) في النظام المُباشر بوساطة الوحدات التي كانت من الممكن أن تَرِد في المكان نفسه، سوى أن الضغط الأول ضغط مُمَاثِلِيٌّ Assimilatrice والثاني مُخالِفِيٌّ Dissimilatrice[2].

1)- المرجع نفسه، ص: 217.

2)- يراجع: J.DUBOIS Dictionnaire de linguistique, P : 218.

عالة العمودية (مناقشة)

ويبدو أن ارتكاز وظيفية جاكبسون على وظائف معينة مميّزة بوساطة إعادة ظهور الزمنية La Diachronie التي لا تمثل فقط مجرد تتابع دراسات تزامنية Synchronique "في حين أنه منذ عهد دي سوسور كنا أقررنا أن الدراسة الزمنية تستلزم الدراسة التزامنية، والعكس غير صحيح، فبالنسبة لرومان جاكبسون لا يمكن أن توجد دراسة تزامنية دون تحليل زمني: تبدُّلات تَحْدُث دومًا في النظام خلال عصر معين"[1].

ويقصد جاكبسون بهذه الالتفاتة الخلفية أن ظواهر لغوية تطرأ على لغتنا من الداخل عبر عوامل خارجية، إذ هناك أساليب قد تنزع نزعًا تعبيريًا وتضمينيًا، وأن ثمت التحقيقات الصوتية التي يتوارثها ممتلكون لاحقون عن متكلمين سابقين، ولذا فإن ما يسمّى التزامنية ينبغي ألاّ يُفهم كمنوال سكوني Façon statique، بل كمنوال ديناميكي أي نشيط وفعّال، وهذا ما نتساءل عنه دائمًا، أي لا توجد أفقية إلا وقبلها أفقيات، وما يمكن أن يوجد حقيقةً العموديةُ، وإذا كان لابدّ من الإقرار عنوة أو بطيب خاطر بوجود أفقية سكونية ما بعدية، فهي له تعدو أن تكون أفقية تركيبية أقرب إلى وهم تزامني منها إلى خلق وإبداع ينبجسان من لا شيء،ومع ذلك لا مناص من الإقرار في الوقت ذاته بأن كل عمودية أو

---

1)- المرجع السابق، ص: 218.

زمنية ليست إلا عالة أكثر ثقلاً لاحقًا على ما تقدمها، لأنها تحتل دائمًا مرتبة أو مراتب تالية، لأن استعمال علامة لسانية، كما يرى اللسانيون، يتطلب نظمًا أو تنسيقًا على محور نظمي وانتقاءً على محور استبدالي، بالإضافة إلى ذلك، فإن التنسيق ذاته ممكن حدوثه بوساطة تتابع أو وقوع مصاحب Co-occurrence.

خلاصة تحليلية حول الوظائف

وخلاصة هذه النظريات الوظيفية والتبليغية أنها تَمدْرُسٌ وتَمذْهُب أزيد مما هي أحكام أو حتى آراء، مِمّا سمح المزيد من الجدل والرأي الآخر، وكأننا أمام دراسات فقلغية (فقه اللغة) لا علمغية (علم اللغة) تدعي أنها الدراسة العلمية (الموضوعية) للغة.

فبالنسبة لأندري مارتني أن الوظيفة المركزية للغة، التبليغ كما تتمّ عبر تبادل المرسلات والخطابات بين المُحَاورين، وهي وظيفة جوهرية لأنها الوظيفة الوحيدة التي تبرّر التنظيم نفسه للغة، ومميزات الوحدات اللسانية، ومظاهر التطور الزمني، وبهذا المعنى، فإن الوظيفيّة Le Fonctionnalisme بوصفها "نظرية لسانية ترفض كل وصف لغوي في

حدّ ذاته على أن تنسّق تصوراتها البضعية Opératoires وإجراءاتها Ses Procédeurs حول هذه المركزية للتبليغ"[1].

وما عدا وظيفة التبليغ يُعدّ وظائف ثانوية، لكت العالم النفساني بوهلر الّذي تبنّى جاكبسون رسمه البياني القاعدي، فحص السيرورة نفسها لكل تبليغ لساني، وانتهى إلى التمييز بين:

1- وظيفة تمثيلية تحيل على المحتوى المرجعي، أي عما نتكلم عنه، لأن هذه الأخيرة (الوظيفة المرجعية) تتعلق بالسياق.

2- وظيفة تعبيرية تحيل على المتكلم أي على ما يبثه هذا الأخير من مرسلة تبيّن موقف هذا الأخير مما يتكلم عنه.

3- وظيفة ندائية موجّهة نحو ملتقط لإشراكه مباشرة في الخطاب كأنه مهتم بما يرسل إليه.

لكن جاكبسون على الرغم من إشادته بهذه الوظائف الثلاث التي تدارسها قبله مارتي وكارل بوهلر، فإنه عدّها تقليدية، وأضاف إليها وظائف ثلاثًا حتى يزاوج بينها وبين أركان التبليغ البيانية الستة، وهذا ما يمكن أن نسميه "السداسية الزوجية"لجاكبسون انطلاقا افتراضيا أن كل ظاهرة إلا وتقابلها ظاهرة أخرى، فالحركة يقابلها السكون، والجهر يقابله الهمس، والصامت يقابله الصائت، والمشتق يقابله الجامد،... وإذا، فلم لا

1) Dictionnaire de didactique des langues, P : 225.

تتزاوج ضديًا أو حميميًا أركان التبليغ الستة بالوظائف الست؟ أو هذا على الأقل ما دار بخلد الرجل، طالما أنه يعتبر كل ركن من أركان التبليغ ميلادًا لوظيفة تقابله، بل أكثر من ذلك، ومثله بوهلر، أن كل وظيفة يمكـــن أن تتجلّى في المرسلة وتؤثّر في الاختيار والتنظيم للعناصر كالوظيفة التعيينيـــة المسماة مهيمنة أو غالبة بسبب كونها تشكل المســعى الأســاس لعــادة مرسلات.

وظيفية المونيمات النحوية

ونحن في هذا العرض اللساني نريد أن نركّز على اعتبار اللغة وظائف فاعلة لا تدرك سطحيًا، بل بتحليل العناصر اللغوية ورصد عملها أو دورها الّذي ناطه النظام بها، أي دور كل عنصر في مجموعة لسانية، لأن لفظـــة "وظيفة" تأخذ دلالات متنوعة جدًا مثلا، على مستوى التحليل للجملـــة، [illegible] ترتبط بعلاقات عناصر الجملة فيما بينها، فالفاعـــل والمفعـــول همـــا Substantif، للاســـم، المكنـــة الوظائف إحدى والنعت ،[illegible] فهذه الوظائف السانتكسية (النحوية) تتعارض على المستوى النحوي مـــع المورفولوجيا (علم الصرف) التي تحلّل الكلمات وتكوينـــها دون مبـــالاة لعلاقاتها"[1].

1)- Révolution en linguistique, P : 92.

ولذا، فنحن أمام اختيارين: إما أن ندرس مختلف الوظائف السانتكسية من حيث استقلاليتها وعلاقتها باللغة، وإما أن ندرس هذه الوظائف دراسة عامة وفق القواعد الوظيفية للغة كما تبصّرها البنيويون، وخاصة تلك التي حُدّدت قبل جاكبسون، حتى وإن كان مفهوم الوظيفة صعبًا تحديده أو محاصرته، لأنه غالبًا ما يستعمل في مفاهيم ضبابية، لكن مشاكل العلاقات بين "وظيفة" و"شكل" و"وظيفة" و"معنى" و"مورفولوجيا" و"سانتكس" و"دلالة" Sémantique علاقات مكوّنة من كل الأشكال الجادة[1].

وحين تذكر اللسانياتُ الوظيفيةُ، فإنه يُقصدُ بها عادةً، وخاصة لدى الوظيفيين أن النظرية اللّسانية التي تدرس العناصر المركبة في جملة أو فقرة أو نص وعلاقتها في النظام اللغوي أو النسق، يجب ألاّ تأخذ بعين الاعتبار أنماط العلاقات التي تتعهّد فيما بينها وحسب، بل ينبغي أن تأخذ بعين الاعتبار أيضًا دورها في التبليغ[2]، أي وظيفة اللغة التبليغ، وبعبارة أخرى هي وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ما دام التبليغ قد يتم بين الناس بأكثر من وسيلة، كما هو الأمر في التواصلات السيميولوجية وغيرها من الحركات والتصرفات والرموز والعادات والثقافات والشفرات،... ولكن اللغة تظل أرقى وأبلغ وأكثر ديناميكية من أي تبليغ بغيرها، ولو وجد القوم عنها مندوحة أو فُسْحَة لعدّلوها أو بدّلوها، لأن اللغة ليست جزءًا

---

1)- يراجع: Dictionnaire de didactique des langues, P : 227.

2)- المرجع نفسه، ص: 229.

من خلقنا وغرائزنا حتى وإن كانت ضرورية لوجودنا الداخلي للتعبير والإفصاح لغيرنا الحاضر أو الغائب عن مشاعرنا ووجداننا، وكياننا الخارجي لتوظيفها في شتى أغراضنا ومبتغياتنا التي تنمّ عنا بصورة مباشرة، فنحن لا نرث عمن تقدّمونا اللغة هذه الأصوات الجوفاء، بل ما جُسّد فيها من معطيات ومبتغيات وعلوم وثقافات وحضارات وآداب وفنون.

على أي حال، تطلق طائفة من البنيويين الأمريكيين الوظيفيّة Le Fonctionnel، وتريد بها كل "مورفيم" Morphème يُشار به إلى ما يصحب استعمال كلمات مثل حروف الجر، وأدوات التعريف، والإعراب، وتصريف الاسم، وروابط العطف، حتى وإن ذكر جورج مونان بأن هذه اللفظة Ce Terme يمكن أن تغطي معاني متباينة جدًا من مؤلف إلى آخر، ولكن الأهم أننا لم نعد نفكّر اليوم بأن المورفيمات لا تمثل إلا شكلاً وليس معنى، في حين أنه حسب العرف عند فندريس Vendryes على سبيل المثال كانت المورفيمات تشير إلى عناصر نحوية (كلمات فارغة) وظيفتها أن تبيّن العلاقات المكينة بين الأفكار المعبّر عنها بوساطة دوال الماهية Sémantèmes (الكلمات المملوءة Les mots pleins)، ولا توجد من بين المورفيمات الكلمات النحوية وحسب (حرف جر، رابط عطف،،...) والسوابق واللواحق، بل يوجد أيضًا النغمات Les Tons، مكان النبر، تنسيق الكلمات،... وأما معنى المورفيم عند بلومفيلد Bloomfield فإنه الشكل الكلامي الأدنى، حيث لا

يوجد له أي تشابه مع أشكال أخرى من وجهات نظر صوتية ودلالية، وأما مارتني فإن المورفيمات تعرّف عنده كمونيمات نحوية تعارضا باللّكْسيمات (ماصِل أو جذور كلمات)، والوحدات اللكسيكية (المعجمية)، والمونيمات، والتراكيب Les Syntagmes أو صيغة اتحادية Syntéme، والوحدات المعجمية تنتمي إلى جرد لا نهائي أو مفتوح، على حين أن الوحدات النحوية تنتسب إلى جرد نهائي أو مغلق[1].

أو بالأحرى، فإنه يقال لوظيفية عند أندري مارتني لكل "مونيم Monème" نحوي يقوم ببيان الوظيفة لمونيمات أخرى، كما في جملة:

- Il a donné ce livre à ta femme et il est parti avec ta femme.

- سلّم هذا الكتاب إلى زوجتك ثم ذهب مع زوجتك (أو معها).

حرف الجر à و"ظرف" AVEC هما مونيمان وظيفيان، لأنهما يبيّنان الوظيفة السانتكسية للوحدة الدنيا زوجتك رابطة أو ضامّة إياها بالنواة الإسنادية أو الخبرية، وهذا خلافًا للصيغ التي تضطلع فقط بدور ثانوي في الملفوظ طالما أنها لا ترتبط إلا بلفظة واحدة، وبذلك تُسمّى هذه الصيغ غير الأساسية جابذة أو دافعة نحو المركز Centripètes، بعكس المونيمات الوظيفية التي تقوم بدور أساس ما دامت ترتبط بالعنصر المركزي، ولذا يقال لها نابذة أو مُبْعِدة عن المركز Centrifuge، مثال ذلك:

---

1)- يراجع: Dictionnaire de la linguistique, P : 221 G.MOuninin.

في: Il est parti avec ta femme (ذهب مع زوجتك)، Avec (مع) تربط زوجتك بذهب: Ta femme à est parti (إنه عنصر نابذ بالنسبة لمركز الملفوظ: النواة الإسنادية Le Noyauprédicatif بينمــا: Ta se rattache à femme (Ta) (كَـ) ترتبط بالمرأة)، وهذا عنصـــر (Ta) جابذ أو دافع نحو المركز إذا ما قورن بمركز الملفوظ[1].

ويفهم من الأمثلة الوظيفية السابقة أو الوظيفة اللغوية في سياق خطابي أو تركيب لفظي تتضمن سُلَّمًا تدرُّجيًا أو ترتيبًا بين وقائع مهمة يقال لهــا وثيقة الصلة بالموضوع Pértinent (ملائمة) ووقائع هامشــيّة، وهــذه الوقائع اللّسانية متميزة في الساتتكس بالوظائف الأولية (و.أ) المُــرادِ بهــا وظائفُ العناصر المربوطة مباشرة بالمسند أو الخبر (محمول)، وبالوظــائف غير الأولية (و.غ.أ) المراد بها وظائف العناصر غير المربوطة مباشرة بالمسند:

- جنود الخفاء يسبّلون أنفسهم في سبيل الوطن

و.أ و.أ.إ و.أ+وأ.غ و.أ.غ

- يداكَ أوكَتا، وفوك نفخ.

و.أ و.أ ، و.أ و.أ

- فأمّا الزَّبَدُ فيَذْهبُ جُفاءً، وأمّا ما يَنْفَعُ الناسَ فَيمْكُثُ في الأرْضِ.

و.أ و.أ.غ و.أ و.أ و.أ.غ.

---

1)- يحال على: Dictionnaire de didactique des langues, P : 229.

وبالنسبة للنحو التوليدي، فإن الوظيفة تعني فيها العلاقة النحوية بحيث إن عناصر بنية تتضامّ في البنية التي تؤلّفها، إذا ألفنا جملة من تركيب اسمي وتركيب فعلي:

ج ← ت ا + ت ف (الطفل + يلهو)

فإن فئة ت ا في هذه القاعدة لها وظيفة المبتدأ أو المسند إليه أو الموضوع، وفئة ت ف لها وظيفة الخبر أو المسند أو المحمول، ومقابل ذلك في البنية حيث التركيب الكلامي مُؤلّف من مساعد Auxiliaire، ومن فعل، ومن تركيب اسمي:

ت ف ← مساعد + ف + ت ا

ولكن المساعد هذا الّذي هو عبارة عن وحدة نحوية تابعة لنظام التصريف الّذي يتركب مع وحدة ذات التقطيع المزدوج الثاني (Lexème) الحامل لدلالة نعثر عليه في لغة كالفرنسية من أجل الدلالة تارة على الزمن، وطورًا على الكيفية:

1)- في فعل ETRE (كان، وُجد) في فعل AVOIR (حَصَل، مَلَك...) ولا نكاد نحس به كثيرًا في لغة كالعربية، ومن الممكن أن يكون فعل الكينونة (كان) أقرب إلى أن يُدعى فعلاً مساعدًا:

ت ف ← مساعد + ف + ت ا

كـان + يكتب + رسالة

لكن هذا الفعل يتصرف مستقلاً ولا يعلّق اسمًا بفعل، وفعلاً باسم، فلا اسم الفاعل، ولا اسم المفعول أو غيرهما معنية به ماعدا الزمن الماضي أو الحاضر أو المستقبل أو الدال على الاستمرار: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ"، على حين أن اسم المفعول في الفرنسية ممكن استعماله مع الفعل المساعد الدالّ على الحصول وغيره:

Les enfant ont dévoré tous les gâteaux (التهم الأطفال كل الحلوى).

أو مع الفعل المساعد الدالّ على الكينونة:

Les feuilles des arbres étaient tombées كانت أوراق الأشجار تَسَّاقَطُ.

Elles se sont baignées dans la rivière كنّ يَستحممْنَ في النهر.

ومن ثم، فإنه لا يوجد بالضرورة تركيب في العربية على نحو:

ج ← مساعد+ ف+ ت ا، إما على نحو:

ج ← ت ف+ ت ا+ ت(ن)، وإما على نحو:

ج ← ت ا+ ت ف+ ت(ن)+ ...

ويستحسن أن نتعامل مع ركني المسند والمسند إليه اللّذين أشار إليهما بذكاء وقّادٍ سيبويه:

ج ← م إ (مسند إليه)+ م(مسند)+ ن+ نَ+ نُ+ ...

ج ← م(مسند)+ مسند إليه (م إ)+ ن+ نَ+ نُ+ ...

العام والخاصّ بين اللغات

ومع ذلك نؤكّد على مراعاة ماهو عامّ أو أعمّ بين كل اللغات وماهو خاصّ أو أخص بين كل لغة وأخرى:

1)- بالنسبة لما هو عام أن شومسكي ضرب المثل بـ: دي مارْسيه Dumarsais الّذي كان يكتب منذ 1729: "توجد ملاحظات في القواعد النحوية تتفق مع كل اللغات"، وهذه الملاحظات تشكّل ما نسمّيه القواعد النحوية العامة، كتلك المتعلقة بالرنّات، والإيقاعات الصوتية المفْصليّة أو النّطقيّة، وبطبيعة الكلمات، والكيفيات المختلفة التي بموجبها تنتظم لتكوين معنى، وهذه المستويات اللسانية الصرف التي لا تدخل ضِمْنها اعتبارات أخرى تنقسم إلى:

- مستويات "فونولوجية".
- مستويات "نحوية".
- مستويات "دلالية".

ومما يستدلّ به اللسانيون المحدثون على طروحاتهم هذه أن كل اللغات المعروفة (بين ثلاثة وأربعة آلاف لغة منطوقة على سطح كرتنا الأرضية) تَشْمل تلفظًا مزدوجًا ذا مستويين: مستوى الوحدات المعنوية الصغرى (المونيمات)، ومستوى الوحدات الصوتية الدنيا (الفونيمات)، وأن عدد الفونيمات محصور في فونيمات مستعملة غالبًا ما تكون أقل من خمسين،

فضلاً عن الفئات السانتكسية (فعل، اسم، ...) وعلاقة المسند إليه بمسنده، وعالمية هذه المستويات بين اللغات تسهّل عملية الترجمة من لغة إلى لغـــة، وتشجع الناس على تعلّم لغات أجنبية.

2)- وبالنسبة لما هو خاص بكل لغة أنه واقع لساني داخلي لا يتطرّق إليه شك من لساني، وما سُمّي بالقواعد العالمية لا علاقة له، بما يدعى بشبه كليات أو عموميات لغوية، لأنه إذا وجدت ظواهر لغويـــة تحتيـــة شـــبه متشابهة بين اللغات الطبيعية المنطوقة، ولا تبرح ملاحظـــة مـــن بعـــض الدارسين، والتي لم تتبلور عندهم بصورة علمية مقنعة حتى الآن، فإن مـــا يُدعى بقواعد كلية أو عمومية بين اللغات أمرٌ لا يمكن بلوغه وتحقيقه، وما يوجد من دراسات مقارنة وتقابلية بين قواعد لغوية لا ترجع ألســـنتها إلى أرومة واحدة لا يعدو أن يكون أكثر من دراسات لسانية فضولية.

إن القواعد العمومية يقصد بها دراسة عناصر مكوّنة للغة ومشتركة بـــين اللغات الطبيعية، وتعود الفكرة إلى الديكاتيين Aux Cartésiens غير أن الوصفيين أو البنيويين لم يروا فيها فائدة، ووجد هذا المشروع نفسه من جديد مع شومسكي والتوليديين الّذين صاغوا فرضية تزعم أن وظيفية اللغة أو عملها تقوم على وجود بنيات عمومية أو كلية فطرية وفعلية وتصيِّرها بَضْعيّة بوساطة المحيط اللساني في إطار كل لغة خاصّة، ففي العربية "مَرَضْ" مشتق من فعـــل "مَرِضَ"، وفي الفرنسية "MALADE" (malade) يكاد لام الكلمة ينطـــق فيها راء مثل الراء في "مريض" العربية، و"MALADE" الفرنسية لا اشتقاق له أي لم يؤخذ من فعل، ونحن نعلم أن اللام في بعـــض اللـــهجات العربيـــة

الفصحى ينطق راء، والعكس بالعكس، هل نقـــول بنـــاء علـــى هـــذا أن "MALADE" الفرنسية تشبه دلاليًا ولكسيكيًا وفونولوجيا "مرضًا" العربية فضلاً عن أن نذهب إلى أنها أخذت من العربية؟ بل أغرب مما ذكرنا أن وجود "مَرَضٍ" بالتنوين قليل الاستعمال، إذ قال الأصمعي: "قرأت على أبي عمرو بن العلاء (في قلوبهم مرَضٌ) فأنكرها عليه قائلاً: "مَرْضٌ" بالسكون، وهو نفـــس النطق على الدال في الكلمة الفرنسية، لكن لماذا يقال "مُمرّض" من "مرّض" في العربية، ويقال: "Infirmier" في الفرنسية؟ ومن ثمّ يفضّل ألاّ نتسرّع بالتروع إلى القول بوجود شبه قواعد كلية أو عمومية بين اللغات، مع الإبقاء علـــى الترجيح بوجود كليات لغوية، لكن في بُناها التحتية أكثر مما هـــو في بناهـــا السطحية تلافيًا لإقرار تلاقي اللغات في أرومة واحدة، والقرآن الكـــريم أقـــرّ باختلاف الألسنة كاختلاف الألوان، لكن اخـــتلاف الألســـنة لا يعـــني إلا اختلافات وتباينات في الكيفيات التي تُؤدَّى بها التبليغات الحصرية لدى قـــوم دون قوم، لا في الطبيعة التحتية للألسنة، وإلا تعذرت الترجمة، والتعبير بإشارات غير صوتية عن مداليل وتبليغات.

هذا الموضوع التشاهي بين اللغات موضوع شائك، لكنه ممتع وشـــيّق، ويبدو أن مصداقيته أقرب إلى الواقع اللساني الإنساني المجسّد منه إلى مجرد تخمين عارٍ من المنطق، ولكن لا نريد أن نتعمق هذه المسألة لعدم ملاءمتها ما نحـــن بصدده، ولكوننا سبق لنا أن أشرنا إليها في عمل آخر أقرب إليه ألفة وصلة.

المـراجـع

1- باللّغة العربية:

- التحليل اللّساني البنيوي للخطاب، عبد الجليل مرتاض، دار الغرب (وهران)، ط: 2002.
- المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1989.
- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: شكري فيصل، دار الهاشم، ط: 1968، بيروت.
- ديوان امرئ القيس، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف مصر.
- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات للأنباري، تحقيق: عبد السلام هـارون، دار المعـارف، مصر.
- محاضرات في اللسانيات العامة، ف.دي سوسور، ترجمة: يوسف غازي، مجيد النصر، دار نعمان للثقافة، ط: 1984، لبنان.
- معجم اللّسانيات، د.بسام بركة، منشورات جروس برس، ط: 1985/1، بيروت.

2-- باللّغة الأجنبية:

- CLEPS pour la linguistique, G.MOUNIN, Editions SEGHERS, Paris, 1971.
- Comprendre la linguistique, sous la direction de BERNARD POTTIER MARABOUT Univairsité, Paris, 1975.
- Dictionnaire de didactique des langues, R.GALISSON/ D.COSTE, LIBRAIRIE HACHETTE, 1976.

- Dictionnaire de linguistique, JEAN DUBOIS LIBRAIRIE HACHETTE.
- ESSAIS de linguistique généralen R.JAKOBSON les éditions de minuit, Paris, 1963.
- Le français faciles pour tous, ; MAURICE RAT GARNIER FRERES, 1965.
- Les voies des langage, BORDAS, Paris, 1982.
- Linguistique et poétique, DANIEL DELAS et JACQUES FILLIORET LIBRAIRIE LAROUSSE, Paris.
- Linguistique et poétique, DANIEL DELAS et JASQUES FILLIORET, Librairie larousse, Paris.
- Pour comprendre la linguistique, MARINA YAGUELLO SEUIL 1987.
- Révolution en linguistique, Editions GRAMMONT, 1975.

فهرس المحتويات

الباب الأول: التحليل اللساني للنص والخطاب

الباب الثاني: التبليغ الوظيفي للخطاب

منشورات دار الأديب
الهاتف : 72 17 35 041

الإيداع القانوني : 2011-4449
ردمك : 978-9947-856-68-0

إن الطريقة التي سنحاول نهجها في هذا التحليل أن نعتمد فيها مبدئيا اعتمادًا لسانيًا تطبيقيًا على عناصر من قصيدة النابغة:

يَا دَارَ ميةَ بالعلياءِ فالسَّنَدِ   أقوَتْ وطالَ عليها سالفُ الأبَدِ

ولكنَّ هذه الإشارة لن تمنعنا من تعضيد هذه القراءة اللسانية بالتفاتات إلى قصائد ونصوص وتراكيب خارج هذه القصيدة الدالية تعميقا لقراءتنا، وتنويعًا للخطابات والتبليغات التي يقتضيها المقام، ويستدعيها السياق والتناص.

والسؤال الذي حضرنا عفويًا، ونحن نهم بتحليل هذه المدونة النابغية تحليلاً وظيفيًا: هل كل ما في مدونات السماء والأرض، وتبليغات الأولين والآخرين ينحصر وفقط في ستِّ الوظائف التي ذكرها جاكبسون ومن نحا نحوه؟ لا أحسب أن راشدًا يغلق على فكره المنافذ ليظل أبد الدهر يدور حول نفسه في حلقة مفرغة؟

لاحظنا، ونحن نحلل دالية النابغة أن كل خطاب يقابله تبليغ، وكلما تنوع التبليغ تنوع معه الخطاب، والعكس بالعكس، وخامرنا احتيار مقلق حال دون البث في هذه اللعبة التواصلية، ولربما دار بخلدنا سؤال خفيّ: ما جدوى هذا التزاوج بين التبليغ والخطاب؟ وإذا كان لابدّ لهما معًا وفي آنٍ، فما الذي يرأس منهما الآخر أو يهيمن على صاحبه؟

وفي جميع الحالات، ينبغي ألا يَسبق اللاحدث الحدث، وليس أمامنا مبدئيًا إلا أن نقرّ طوعًا أو كرهًا بالست الوظائف، إذا ما أردنا أن نخرج من قراءة المد والجزر، والتطلع في كل مرة إلى التجريد والتنظير اللذين عادة ما يقوّضان لسانيات النص والتبليغ.

طجق

منشورات دار الأديب